

الفصل الثالث

أفكاره ونظرياته

من الممكن تقسيم نظريات «كوندرسيه» حسب موضوعاتها إلى ستة أقسام :
نظرية المعرفة ، المساواة والحرية ، نظريته في التعليم العام ، نظرية التقدم ،
آراؤه في مستقبل الإنسانية ، تحليلاته للحضارة العربية ومدى تأثيرها في النهضة
الأوربية ، وأخيراً نظرياته في فلسفة التاريخ . وتعد نظرياته الخاصة بفلسفة
التاريخ أهم آرائه نظراً لأصالتها . وفيما يلي عرض لتلك النظريات والأفكار مع
التعليق على بعضها .

١ - نظرية المعرفة :

يرى «كوندرسيه» أن الإنسان خلق مزوداً باستعداد فطري يمكنه من تلقي
الإحساسات والشعور بها عن طريق الحواس ، ويقسم تلك الإحساسات إلى نوعين
إحساسات بسيطة وأخرى مركبة ، ويتميز ذلك الاستعداد بقابليته للنمو والترقي ،
وينمو ذلك الاستعداد وتزداد دقته عن طريق عوامل متعددة أهمها :

(١) الأشياء الخارجية التي يلاحظها الإنسان ، فكلما كثرت ملاحظات

الإنسان للواقع الخارجي نمت وارتقت ذلك الاستعداد .

(ب) اتصال الإنسان بأخيه الإنسان ، فعن طريق احتكاك العقول بعضها
ببعض تقوى قدرة الإنسان على فهم الواقع الخارجي الذي حوله ، وبالتالي تتكون
إحساسات مركبة جديدة .

(ح) عن طريق وسائل صناعية توصل إليها بعد أن قطع شوطاً في مراحل
التقدم ، ومن أمثلة تلك الوسائل القراءة والكتابة والآلات وكل الاختراعات الإنسانية
التي من شأنها زيادة معرفة الإنسان بما حوله .

وعندما تتجمع لدى الإنسان عدد كبير من الإحساسات سواء أكانت بسيطة

أم مركبة ، فإنه يستطيع عن طريق استعداد فطري خاص ربط تلك الإحساسات بعضها ببعض في صورة مجموعات متماسكة.

ويتمتع الإنسان باستعداد ثالث يمكنه من تحويل الإحساسات المؤقتة إلى مشاعر دائمة ويعرف هذا الاستعداد «بالذاكرة» ، وعن طريق تلك الاستعدادات وخاصة الاستعدادين الأخيرين يستطيع الإنسان الإبداع والاختراع .

وتنمو تلك الاستعدادات على مرور الزمن وتسير في نموها في طريق التقدم والكمال ، وبهذا النمو لإخطوات تقدمية ، وإذا درسنا تقدم تلك الاستعدادات في كل المجتمعات الإنسانية وفي كل العصور يكون بحثنا خاصاً بميدان الميتافيزيقا ، وإذا بحثنا ذلك التقدم بالنسبة لكل شعب وبتحديد زمن معين يكون بحثنا هذا رسماً لتقدم العقل الإنساني . ويجب أن نعلم أن ذلك التقدم للعقل الإنساني لا بد أن يسير في الإطار العام الذي تحدده الدراسات الميتافيزيقية الخاصة بدراسة التقدم الإنساني عامة دون التقييد بالمكان والزمان . وهكذا نصل عن طريق الميتافيزيقا إلى تحديد المبادئ العامة لتغير المجتمعات ولتقدمها .

وصفة القول أن المعرفة عند كوندرسيه ترجع إلى الحواس ، وتبدأ بإحساسات بسيطة ثم تتجمع في صورة إحساسات مركبة وعن طريق تلك الإحساسات المركبة تتكون معرفتنا ، وهكذا إذا حللنا أى نوع من المعرفة الإنسانية مهما كانت درجة تجريدتها نراه يرجع في الأصل إلى إحساسات بسيطة .

وقد تأثر كوندرسيه بالفيلسوف الإنجليزي جون أوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) في ميدان المعرفة. فنظرية لوك في المعرفة أساسها الحواس وقد ألغى المبادئ العقلية الفطرية ، وقد قسم لوك الأفكار إلى بسيطة ومركبة ومصدر كليهما الحواس وما يؤكد تأثر كوندرسيه بـ لوك أن كوندرسيه يشيد بنظرية لوك في المعرفة^(١) ، وعندما يتعرض كوندرسيه لنظرية ديكارت في المعرفة - تلك النظرية التي تقف

على طرف نقيض مع نظرية لوك - يتخذ موقفاً معارضاً ويكثر من الهجوم عليها^(١) . ويجدر بنا أن نشير إلى أن أساس نظرية ديكارث في المعرفة هو المبادئ العقلية الفطرية التي بدونها لا يكون للإحساسات أى معنى .

٢ - نظريته في الحرية والمساواة :

يرى كوندرسية أن الحرية هي حق طبيعي للإنسان ، ويؤكد أنها أعلى حق طبيعي ، ويقصد بالحرية حرية التفكير ، ويجب على التفكير الإنسانى أن يكون تابعاً للعقل فقط ولا يخضع لأية سلطة أخرى ، ولذلك ينادى كوندرسية بضرورة تخليص التفكير الإنسانى من سيطرة كل من رجال الدين والخرافة والأفكار المسلم بها سابقاً واستبداد الحكام . وقد نادى كوندرسية بالحرية فى كل مجتمع وليس فى فرنسا فقط وقدم كوندرسية مشروعاً لدستور فرنسى جديد يقيد سلطة الهيئة الحاكمة ويحمى الشعب من طغيان الحكام . وقد رفض هذا الاقتراح نظراً لسيطرة حزب اليعاقبة على المؤتمر الوطنى ، وكان رجال ذلك الحزب يكرهون كوندرسية الذى رفض أن يكون تابعاً لهم . وكانت مقالات كوندرسية فى الصحف تدور حول ضرورة تحقيق حرية الشعب والقضاء على استبداد الحكام . وعند كلامه عن الصورة المستقبلية الإنسانية نراه يؤكد حصول جميع الشعوب على حريتها وقد هاجم الاستعمار الأوروبى لأفريقيا وآسيا والأمريكيتين ، وقد تنبأ بانهايار الاستعمار واختفائه وحصول كل الشعوب على حريتها واستقلالها ، ويجب أن لا ننسى أن كوندرسية نادى بضرورة القضاء على الاستعمار ، وقد عاش فى القرن الثامن عشر الذى كان فيه الاستعمار يعتبر واجباً مقدساً للشعوب البيضاء على أساس الدعوى الباطلة القائلة بأن الاستعمار يعمل على تهذيب ونشر التعليم بين الشعوب المتخلفة . لقد نادى كوندرسية بالقضاء على الاستعمار

وهو ينتمى إلى فرنسا التي كانت تستعمر في ذلك الوقت مناطق شاسعة في أفريقيا وآسيا .

ورغم تلك الاعتبارات فقد نادى كوندرسيه برأيه بصراحة وتنبأ بانهايار الاستعمار في المستقبل القريب .

وقد نادى كوندرسيه أيضاً بتحقيق المساواة بين الجميع في الحقوق . . . الطبيعية ، ويرى أن المساواة المنشودة هي المساواة في الملكية ، والمستوى الاجتماعي والتعليم والحقوق السياسية .

وقد نادى بالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء وخاصة بالنسبة للحقوق السياسية .

٣ - نظريته في التعليم العام :

وضع نظاماً للتعليم العام على أساس المبدأ الديمقراطي القائل بتكافؤ الفرص ، ويتيح هذا النظام التعليم الأولي أو الابتدائي للجميع بالجان ، وهكذا يستطيع كل من الفقير والغنى أن يحصل على المبادئ الأساسية للمعرفة ، أما التعليم العالي فليس مباحاً للجميع ولكنه قاصر على الطلبة الممتازين وليس على الطلبة الأغنياء ، وبالتالي يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم العالي أيضاً ، وذلك لأن مجموع الدرجات هو العامل الحاسم الذي يقرر دخول الطالب في مرحلة التعليم العالي .

وقد نادى كوندرسيه بضرورة عدم خضوع التعليم لأي سيطرة دخيلة ، وبالتالي يجب فصل التعليم عن الحكومة والدين حتى نضمن حماية التعليم من أهواء الحكام وتدخل رجال الدين . ولذلك يجب أن تدرّس العلوم الموضوعية في المدارس ، أما الدين فيعلم في المعابد وليس في المدارس . وقد نادى كوندرسيه بحرية العقيدة والتسامح بين جميع الأديان .

وقد جعل دور التعليم الابتدائي هو تمكين المواطن من فهم دقيق للحقوق

والواجبات ، أى خلق المواطن الصالح عقلاً وروحاً . وهكذا أهم كوندريسيه ببرامج التربية القومية فى مرحلة التعليم الابتدائى . أما دور التعليم العالى فهو توفير المتخصصين والفنيين فى العلوم والآداب .

٤ - نظرية التقدم :

إن التقدم أمر حتمى للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها ، وأساس تقدم الإنسانية هو تقدم العقل البشرى ، فمن طريق تقدم القوى العقلية تتقدم الجوانب الإنسانية المادية والاجتماعية . ولا يخرج التقدم العقلى عن كونه تقدم الاستعدادات الفطرية فى الإنسان ، وهكذا يخضع كوندريسيه الحياة الاجتماعية لفكرة التقدم القائمة على أساس وجود ميل فطرى يدفع الإنسان إلى تنمية قواه الفكرية إلى أكبر حد ممكن .

ويرى كوندريسيه أن دراسة التقدم الإنسانى فى جميع الشعوب بصورة عامة تعد من ميادين الميتافيزيقا ، أما إذا درسنا ظاهرة التقدم بالنسبة لكل مجتمع على حدة ؛ فإن بحثنا يكون دراسة للخطوط التفصيلية التى يسير فيها تقدم العقل الإنسانى . ولكن تلك الخطوط التفصيلية تسير فى إطار عام تحدده الميتافيزيقا التى تدرس التقدم العقلى بصورة عامة .

ويرى أن دراستنا للتقدم الذى تم فى العصور القديمة والسابقة والذى يحدث فى عصرنا تساعدنا فى معرفة التقدم الذى سيحدث فى المستقبل .

وتدفع الطبيعة الإنسان إلى الكمال ولا يمكن لأى قوة أن تقف فى سبيله بصورة دائمة إذ قد تعترض تقدم الإنسانية بعض العقبات التى تعرقل التقدم لفترة معينة . إن هذا التقدم الحتمى للعقل الإنسانى يسير خطوات قد تكون سريعة وقد تكون بطيئة ولكنها لا تتوقف أبداً ، ولا يمكن أن تحدث خطوات إلى الوراء .

ويحدد أهم العقبات التى تلعب دوراً هاماً فى عرقلة تقدم الإنسانية وهى

المعتقدات المسلم بها سابقاً دون برهنة على صحتها وتعد الحرافات أوضح مثل تلك المعتقدات .

٥ - تحليلاته للنهضة العربية والدين الإسلامي :

تعرض كوندرسيه للديانة الإسلامية والنهضة العربية إبان العصور الوسطى وبدأ كلامه بالتعريف بالعرب بأنهم كانوا في الأصل قبائل متعددة تسكن حدود آسيا وأفريقيا ، ولم يكن يربط تلك القبائل أية رابطة سياسية ولكنها كانت متحدة في الأصل واللغة والعادات ، وعرفت تلك القبائل بالشجاعة ولذلك استطاعت الوقوف أمام هجمات الفرس والإسكندر والرومان . وقد ظهر بين تلك القبائل رجل وحّد صفوفهم وخلق منهم أمة كبيرة متماسكة وقد عودهم على قبول فكرة الرئيس العام ، وقام بالتبشير لدين قوى أكثر نقاء وطهارة مما وجد قبل ذلك ، كان هذا الرجل مشرعاً ونبيّاً ، وقاضياً وإماماً وقائداً للجيش .

ولقد استخدم هذا النبي كل الوسائل التي تخضع الرجال وعرف كيف يستعملها بخبرة ولكن في عظمة وهيبة . ويذكر كوندرسيه قصة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مؤداها أنه وهو في أوج قوته طاب من الناس أن ينقدوا أعماله وأنه إذا كان قد اقترف خطيئة فهو مستعد أن يصلحها . وقد صحت الجميع أمام النبي إلا امرأة واحدة تقدمت إليه وطلبت منه مبلغاً صغيراً من المال .

وقد لعب الدين الجديد دوراً فعالاً في تطوير وتهذيب أخلاق وعادات العرب فأصبحت رقيقة وهادئة .

وينتقل إلى الكلام عن آثارهم الفكرية ، فيقول إن العرب قد درسوا أرسطو وترجموا كتبه ووضعوا أسس علم الفلك وعلم البصريات والطب ، ولقد زدوا تلك العلوم ببعض الحقائق الرئيسية ، ويرجع إليهم تعميم استعمال الجبر بعد أن كان عند اليونان قاصراً على نوع واحد من التمرينات . واخترع العرب الكيمياء وعرفوها بأنها علم تحليل الجسم المركب إلى عناصره البسيطة ، وتهتم أيضاً بتحديد صور ترابط تلك العناصر والقوانين التي تخضع لها .

وقد ازدهرت تلك العلوم عندما تمتع العرب بالحرية ولكنها انهارت عندما ساد استبداد رجال الدين ، ولم تدم تلك الحرية إلا قليلاً ثم ساد الاستبداد وحل محل العلوم ظلام وانحيار .

وعندما هدا الحماس الديني بسبب الهزائم التي لحقت العرب بعد ذلك ، اضمحل الذوق في الآداب والعلوم وأخذ ينحصر نشاطهم الفكرى في الدعاية للإسلام . ولقد فقد الجنس البشرى معظم آثار تلك النهضة الإسلامية ، وقد استفاد الغرب من بعض تلك الآثار وقد نتيج عن ذلك النهضة الأوربية التي صاحبت سيادة مبادئ الحرية في أوروبا . وبعد أن كوّن العرب دولة كبيرة تمتد من شاطئ المحيط الأطلسى إلى شواطئ الهند ، تعرضوا لغزوات البربر وانهارت معظم أجزاء تلك الدولة ، أما الجزء الأصلى لتلك الدولة ، وهو شبه الجزيرة العربية ، فقد احتفظ بعاداته وروحه واستطاع الدفاع عن استقلاله . وفى ذلك الجزء الذى يتعرض فيه كوندرسيه للعرب وجدت عبارة مكتوبة بين قوسين ، وقد وضعت بين قوسين لأنها إضافات لا توجد فى الأصل المنسوخ بخط كوندرسيه والموجود فى المتحف الفرنسى .

هذه العبارة أنقل نصها فيما يأتى (١) :

« إن العبقرية التى وجدت عند العرب — والتى صاحبت أصحاب الحكم المستبد ولازمت ديناً متعصباً — لم تكن ظاهرة عامة وإنما هى استثناء عابر فى القوانين الطبيعية العامة التى تحكم على الشعوب التى تؤمن بالخرافات بالجهل والانحطاط » .

إن هذه الفقرة لم يكتبها كوندرسيه ، ولذلك يضعها « پروير » بين قوسين () وهى تلك الإضافات التى وجدها « پروير » فى طبعة Arago « أراجو » لكتاب كوندرسيه « الموجز » والتى لم يجدها فى النسخة الأصلية التى كتبها

كوندرسيه بنفسه . وبذلك لا نستطيع أن نحدد من هو الذى كتب هذه العبارة وغالباً أنه « أراجو » وضعها للشرح مثلاً ، ولكن لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، وقد تكون أضيفت للتشهير بالعرب والحط من مكانتهم .
وعلى كل فإن توخى الحقيقة يجعلنا نصصح المعلومات التى جاءت فى هذه الفقرة ويمكن أن نلخصها فى ثلاثة ادعاءات :

١ - إن عبقرية العرب هى أمر شاذ واستثناء للطبيعة .

٢ - إن الدين الإسلامى دين متعصب .

٣ - إن العرب (فى ذلك العصر) كانوا يؤمنون بالخرافات .

إن هذه الادعاءات الثلاثة التى أضيفت إلى أقوال كوندرسيه والتى لم يذكر منها شيئاً سواء بالتلميح أو بالقول المباشر تدل على تعصب أعمى ضد الشرق والعرب وضد أى تقدم يظهر فى الشرق ، ولذلك يجب علينا مناقشة تلك الادعاءات وتصحيح ما جاء فيها من أكاذيب .

الادعاء الأول :

إن الشرق مثل الغرب تماماً قد يتقدم وقد يتأخر ، ولا يمكن أن نعتبر تقدم الشرق ظاهرة شاذة أو استثناء للقوانين الطبيعية ، فهل يوجد قانون يفرض على الشرق والعرب الانحطاط والتأخر ؟ إنه لا توجد قوانين اجتماعية ولن توجد بهذه الصورة ، لأن تلك آراء شخصية وليست قوانين ، بل هى أمنيات بعض الأوربيين الذين أعماهم التعصب عن تسجيل الواقع بصورة موضوعية .

الادعاء الثانى :

وهو القائل بأن الدين الإسلامى دين تعصب ، هذا أيضاً كذب وافتراء فإن كوندرسيه نفسه قال ما نصه^(١) : « إن ديانة « محمد » بسيطة فى عقائدها ومتسامحة فى مبادئها » ، فهل يعقل أن يشرح هذا القول بأن هذه الديانة متعصبة

(١) المرجع السابق ص ١٠ .

كما جاءت في هذه العبارة المضافة السابقة . إن القصد من هذه العبارة هو تشويه الحقائق والخط من تاريخ العرب . فالدين الإسلامى هو عدل مطلق وتسامح تام ليس أمامه شريف ووضع ولا أبيض ولا أسود بل ولا مؤمن^(١) ومشرك وهو عدل كامل ، فالناس في الإسلام سواء ، لا يتميزون^(٢) إلا بالتقوى والعمل الصالح ويقول الله تعالى في القرآن الكريم :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

فقد نهض الإسلام بالإنسان إلى مكانة عليا فاحترم عقله وإرادته وحرية وتركه حرراً من غير أن يكرهه على أن يعتنق هذا الدين أو ذاك .

فيعول الله تعالى في القرآن الكريم : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ومن^(٣) الأحاديث المأثورة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

إن ديننا هذه مبادئه هل يعقل أن يوصف بالتعصب ، إن العبارة التي تدعى هذا لا تدل إلا على تعصب أعمى ضد العرب والشرق والإسلام .

الادعاء الثالث :

وهو أن العرب في أوج رقيهم وتقدمهم شعب يؤمن بالخرافة . هذا قول خاطئ من أساسه ، والحقائق تثبت خطأه ، وهذا ما نفهمه من قول أحد المؤرخين الغربيين

(١) محمد عبد المنعم خفاجى « الإسلام وحقوق الإنسان » القاهرة ١٩٥٠ ص ١٦ .

(٢) محمد على علوية « الإسلام والديموقراطية » القاهرة سنة ١٩٥٠ ص ٢٨ .

(٣) محمد عبد المنعم خفاجى « الإسلام وحقوق الإنسان » ص ١٧ .

(وليس العرب حتى لا يتهمنا أحد بالتعصب) يصف فيه حضارة العرب في الدولة العباسية وهي تلك الدولة التي وصل فيها العرب إلى أعلى مراحل الحضارة والتقدم فيقول هذا المؤرخ الغربي وهو الأستاذ نيكلسن^(١) : « إن لانبساط رقعة الدولة العباسية (من سنة ٧٥٠ م إلى سنة ١٢٥٨ م) ووفرة تجارتها أثراً كبيراً في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل . حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً قد تحولوا فجأة إلى طلاب علم . »
 فهل دولة هذا شأنها يمكن أن تؤمن بالخرافة؟ وهل يعقل أن نحكم عليها بذلك؟ إننا إذا بحثنا في ثقافتها وفنونها لن نجد أى أثر للخرافة، ففي الدولة العباسية^(٢) قويت حركة النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية، وأرسلت البعث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة لترجمتها .
 ولقد ازدهرت في هذا العصر العلوم جميعها من تاريخ وجغرافيا وفلك وكيمياء ورياضيات، وكذلك ازدهرت الفلسفة والطب^(٣)، وأيضاً ازدهرت الفنون وإن كانوا لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنيتهم بالبناء والزخرفة، فإن هذا يرجع إلى أنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان . هذا بجانب تقدمهم في الآداب والشعر والبحوث الدينية، وكذلك تقدموا في ميدان الزراعة والصناعة والتجارة .
 هذا شيء من نهضة العرب في ذلك العصر^(٤)، وهي تلك النهضة التي وصفها كوندروسيه نفسه^(٥) بالعبقرية؛ من هذا كله نثبت خطأ القول بأن العرب في نهضتهم في العصور الوسطى كانوا يؤمنون بالخرافة، الحقيقة أنهم تمسكوا بالعالم وبالحقائق وإلا لما كان لهم نهضة .
 ثم إن العبارة السابقة تقع في خطأ آخر، فإنها ترى أن عبقرية العرب هي

(١) Nicholson : Literary History of Arabs', London 1948, P. 281.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن « تاريخ الإسلام » القاهرة سنة ٥٣ ص ٢٩٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٤) د . عاطف وصفي : المجتمع العربي ، القاهرة ١٩٦٥ (راجع الفصل الخاص بالحضارة

العربية وفضلها على الغرب) من ص ١٩٠ إلى ص ٢١٠ .

(٥) Condorcet : Esquisse, P. 102.

استثناء لقانون معين ، فهل يوجد قانون له استثناءات ، الواقع أن القاعدة التي لها استثناء لا تصبح قانوناً ، بهذا كله ثبت خطأ وكذب الادعاءات السابقة . لقد اهتمت بهذه العبارة الدخيلة المغرصة ، لأننا الآن في عصر تزدهر فيه القومية العربية ، وينهض فيه العرب لأخذ حقوقهم المسلوبة ، ولذلك لن نرضى مطلقاً أن يشوه الغربيون تاريخنا ومجدنا وعبقريتنا الأولى وكذلك لن نقبل التشكيك في ديننا وحضارتنا الإسلامية .

٦ - نظرياته في فلسفة التاريخ :

ترتبط نظرية كوندرسيه في التقدم بنظرياته في فلسفة التاريخ إذ وضع قانوناً عاماً لسير التاريخ الإنساني ، يرى كوندرسيه أن الإنسانية تسير على ممر التاريخ في طريق التقدم المطلق ؛ وكما ذكرت سابقاً إن أساس هذا التقدم هو العقل ، بمعنى أن العقل الإنساني هو الذي يتقدم في الأصل ، ويؤدي هذا إلى تقدم جميع جوانب الحياة الإنسانية من مادية واجتماعية . ويؤمن كوندرسيه إيماناً قوياً بالعلم ، وهو يرى أن التقدم العقلي هو في حقيقته تقدم العلم .

ويقوم القانون العام الذي وضعه لتقدم الإنسانية على أساس النظر إلى المجتمعات الإنسانية وتاريخ البشر نظرة كلية عامة ، وتعرف تلك النظرة الكلية بظاهرة « تشخيص الإنسانية »^(١) أي تشبيه الإنسانية بشخص واحد .

ويرى كوندرسيه أن الإنسانية في تقدمها تسير في عشر مراحل ، تعبر المرحلة الأخيرة أي العاشرة عن مستقبل الإنسانية ، أي عن العصر الذي يلي عصر كوندرسيه ، ولذلك تعد آراؤه في تلك المرحلة تنبؤات تمثل أقصى مراحل التقدم الإنساني .

وقد سجل كوندرسيه نظرياته الخاصة بفلسفة التاريخ في كتابه الشهير « الملخص » ، ذلك الكتاب الذي يمثل أهم مؤلفات كوندرسيه ، وقد سبق

(١) بالفرنسية : Anthropomorphisme

ذكر الظروف القاسية التي صاحبت ذلك المؤلف^(١) .
 ويجدر بنا قبل عرض آرائه في فلسفة التاريخ أن نقدم فكرة سريعة عن
 فلسفة التاريخ .
 لقد قدم لنا كثير من الفلاسفة والعلماء تعريفات عديدة لفلسفة التاريخ
 أهمها ما يأتي :

١ - يسمى الفيلسوف الإيطالي « فيكو » فلسفة التاريخ بالتاريخ الفكري
 الدائم ويعرفها بأنها :

« قانون عام تخضع له حوادث التاريخ عند سائر الأمم وخاصة الأمم
 الأوروبية »^(٢) .

٢ - ويقول العلامة الفرنسي « دوركايم » :

« فلسفة التاريخ هي نوع من المعرفة الاجتماعية التي تبحث في تحديد
 الاتجاه العام لتطور الإنسانية » ، « وهي تفكير شخص يتعلق بميول المفكر » ،
 « وأساس فلسفة التاريخ هو فكرة تقدم الإنسانية »^(٣) .

٣ - ويرى المفكر الفرنسي « برييه »^(٤) أن :

« فلسفة التاريخ هي قسم من تاريخ الفلسفة الحديثة يقوم بدراسة الإنسانية
 في جملتها » .

يتضح من التعاريف السابقة أن فلسفة التاريخ هي تفكير فلسفي يرسم
 خطى سير التاريخ الإنسانى بأكمله ، ويتم ذلك عن طريق وضع قانون عام
 يفسر تطور الحوادث التاريخية الهامة في جميع المجتمعات البشرية .
 وقد بحث الإنجليزي المفكر « ولش »^(٥) موضوع ومنهج وأقسام فلسفة

(١) انظر صفحات ٣١ و ٣٢ .

(٢) Vico : La Science Nouvelle, Paris 1927, P. 13.

(٣) Durkheim : Les Règles de La Methode Sociologique, Paris 1938, Pp. 121, (٢)

144, 145.

(٤) Brehier : Histoire de la Philosophie, Paris 1932, T. II, Vol. iii, P.574.

(٥) Walsh : Introduction to Philosophy of History, London, 1951.

التاريخ بصورة مستفيضة في كتابه : «مقدمة إلى فلسفة التاريخ» ، ويقسم « وولش » فلسفة التاريخ إلى قسمين رئيسيين : فلسفة التاريخ الميتافيزيقية وفلسفة التاريخ النقدية .

وقد ظهرت فلسفة التاريخ الميتافيزيقية في أول الأمر على يد العلامة الإيطالي « فيكو » Vico في القرن الثامن عشر الميلادي (حسب رأى وولش) ، وترى فلسفة التاريخ هذه إلى معرفة دور التاريخ الانساني ككل ، وتم تلك المعرفة عن طريق رسم خطة عامة تفسر حوادث التاريخ من إجمالية وتفصيلية ، وتجعلنا تلك الخطة نرى دور التاريخ بصورة متفقة مع المنطق^(١) .

أما منهج فلسفة التاريخ الميتافيزيقية فيتمثل في جميع الطرق الميتافيزيقية ومنها الإكثار من الخيال ، وخصوصية الاقتراحات والتعميمات غير الدقيقة . وإذا انتقلنا إلى القسم الثاني : فلسفة التاريخ النقدية ، نجد أنها تختص بالصورة الحديثة لفلسفة التاريخ ، تلك الصورة التي تتفق مع بعض مبادئ المنهج العلمي الخاصة بالملاحظة ودقة المعلومات . ويحدد « وولش » أربعة موضوعات تبحثها فلسفة التاريخ النقدية وهي :

- (١) تحديد العلاقة بين علم التاريخ والعلوم الأخرى
- (ب) التحقق من صحة أقوال المؤرخين والمستندات التاريخية^(٢) .
- (ج) تحديد معالم الموضوعية التاريخية ، إذ يجب على المؤرخ أن يفصل بين التاريخ والدعاية^(٣) .
- (د) تحديد قواعد يتبعها المؤرخون في شرح الحوادث التاريخية التي يدرسونها ، إذ أن عمل المؤرخ لا يقتصر فقط على تسجيل الحوادث التاريخية ، وإنما عليه أن يقوم بشرحها ومقارنتها بعضها ببعض للوصول إلى مبادئ عامة^(٤) .

(١) المرجع السابق : صفحات ١١ و ١٢ و ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢ .

إن فلسفة التاريخ التي عالجها كوندرسيه هي فلسفة التاريخ الميتافيزيقية ، وهي تمثل المعنى التقليدي لفلسفة التاريخ ، وذلك لأن فلسفة التاريخ النقدية تمثل فهماً حديثاً ظهر في القرن العشرين . وقد وضع كوندرسيه قانوناً عاماً لتقدم الإنسانية على ممر العصور ، ويقوم هذا المبدأ العام على أساس تقدم العقل الإنساني ، فإن مراحل تقدم الإنسانية هي ذاتها مراحل تقدم العقل البشري . وقد مر هذا التقدم الإنساني في عشر مراحل ، تمثل المرحلة العاشرة منه مستقبل الإنسانية في العصور التي تلي عصر كوندرسيه . وفيما يلي عرض ومناقشة أهم نظرياته في المراحل العشر لتقدم الإنسانية .

المرحلة الأولى : ظهور الجماعات الإنسانية الأولى :

يرى كوندرسيه أن استخدام الملاحظة لتحديد نشأة المجتمع الإنساني لا يفيد في شيء ، ولذلك فهو يعتمد على التخمين ، وما يساعد على فهم هذه المرحلة فحوصنا للقدرات العقلية والأخلاقية والتركيب الجسدي للإنسان ، وكذلك تحليلنا لتطورات تلك القدرات على ممر العصور .

وأول مجتمع ظهر هو الأسرة ، وهي مجتمع طبيعي بالنسبة للإنسان ، وما أدى إلى تكوين الأسرة حاجة الأطفال إلى آباءهم لرعايتهم وكذلك حنان الأم والأب لأطفالهما ، وإن كان حنان الأب أقل عمومية وحيوية من حنان الأم ، وإن اعتماد الأطفال على آباءهم مدة طويلة أعطى الفرصة لظهور الشعور بالرغبة في استمرار وجود الأسرة ، وهذا أدى بالتالي إلى أن الإنسان لمس بوضوح الفوائد التي يجنيها من معيشته في مجتمع ٥

وقد استقرت الأسرة الواحدة على قطعة من الأرض تستغلها كمورد للعيش ، ثم أخذت تتكاثر ويزداد عددها ويكبر حجمها وأصبحت معشراً ، وقد يتكون المعشر بتجمع عدة أسر ، ولكن النوع الأخير أقل انتشاراً من النوع الأول وظهر بعد فترة من الزمان من ظهور المعشر الذي يرجع إلى أسرة واحدة تكاثرت وزاد حجمها .

وكان ظهور الفنون العملية في هذا العصر هو الثمرة الأولى لحياة الإنسان في جماعة ،

والفنون العملية عند كوندرسيه هي التي تميز المجتمع الإنساني عن المجتمع الحيواني ، وهذه الفنون هي فن صنع الأسلحة وفن الطبخ وفن إعداد الأدوات اللازمة للطبخ وفن حفظ المأكولات لمدة محدودة وفن إعداد المؤونة للفصول التي لا يتوافر فيها الطعام .

وكان المورد الأساسي للحياة في هذه المرحلة هو الصيد البري والبحري ، وفي بعض المعاشر كان النساء يزرعن بعض المزروعات حول الأكواخ ، وفي معاشر أخرى كانت الأرض تقدم من تلقاء نفسها بعض الخضروات ، وكان البدائيون يشغلون جزءاً من أوقاتهم في البحث عن هذه الخضروات وجنيها . وكان يوجد في هذه المرحلة لغة لفظية مستعملة في كل مكان ، إن تكرار واستمرار العلاقات بين الأفراد والمصالح المشتركة والمساعدات المتبادلة في عمليات الصيد الجمعي وفي مقاومة عدو مشترك أدى إلى وجود شعور بالعدالة وأدى إلى وجود مشاركة وجدانية بين أعضاء المجتمع الواحد ، وبعد ذلك بقليل تحولت هذه العاطفة نحو المجتمع نفسه ، أي أن الأعضاء أصبحوا يحبون المجتمع نفسه وهذه العاطفة الأخيرة أدت إلى وجود الرغبة للأخذ بالثأر من أعداء المجتمع أو المعشر .

واحتاجت هذه المعاشر إلى زعيم ينظم الدفاع ووسائل المعيشة وبذلك ترددت الفكرة الأولى عن السلطة السياسية ، وكان أفراد المعشر يتناقشون ويتشاورون في حل المشاكل التي تعترض حياتهم اليومية وقد حال ضعف النساء الفسيولوجي دون اشتراكهم في هذه المناقشات أو الحروب أو في عمليات الصيد البعيدة . وكانت توضع السلطة في أيدي الذين يحصلون على ثقة الغالبية وكانت تكتسب تلك الثقة عن طريق صفات شخصية أهمها السن وقوة الشخصية ، وقد ظهرت اللغة قبل تلك التنظيمات ويرجع تكوين اللغة إلى المجتمع كله ، وقد تم في تلك المرحلة الأولى اختراع القوس الذي يرجع إلى رجل ذى عبقرية ،

وبينما تكونت اللغة ببطء وبصورة تدريجية تم اختراع القوس سريعاً .

ويرى أن الرقص والموسيقى يرجعان إلى هذه المرحلة الأولى للإنسان ، وكانوا يؤدون لتسلية الشباب وفي الأعياد الشعبية ، وكان يوجد في هذه المجتمعات أغان للحب ونشيد للحرب وقد صنعوا بعض الآلات الموسيقية ، وكان فن الخطابة معروفاً في هذه المرحلة وعلى الأقل كانوا يستخدمون نغمة أعمق وأقوى من الكلمات العادية في خطب الزواج .

ويحدد العيوب التي وجدت في هذا العهد بأنها ظهور الخرافة بكامل أنواعها والانتقام والقسوة في معاملة الأعداء واستعباد النساء .

ولم تخرج العلوم الوحيدة عند هؤلاء عن بعض معلومات مشوهة عن الفلك والنباتات الطبيعية التي كانت تستخدم لعلاج الأمراض ، وكانت تلك المعلومات مختلطة بالخرافات ولهذا كانت فاسدة .

وفي هذا العصر ظهرت طبقة من الأفراد تكتم في نفسها أسس العلوم ومبادئ الفنون والأسرار والحفلات الدينية وتطبيق الخرافات وأحياناً كان لديها أسرار التشريع والحكم ، كانت هذه الطبقة هي الطبقة الحاكمة ذات النفوذ .

ويرى أنه من الممكن تقسيم الأفراد في ذلك الوقت إلى قسمين :

١ - قسم يتخصص في التعليم وهي الطبقة الحاكمة .

٢ - قسم ما عليه إلا التصديق (الشعب) .

القسم الأول يخفى في غرور الأمور والمعلومات والأسرار التي يتبها بمعرفتها والآخر يتلقى باحترام ما يسمح له القسم الأول من معلومات ، ومن الممكن ملاحظة بقايا هذا التقسيم في القرن الثامن عشر على يد القساوسة ، ورغم أن هذا التمييز يتكرر في كل العصور إلا أنه ليس أمراً طبيعياً أو فطرياً في الإنسان^(١) .

Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrès de l'Esprit Humain, (١)

Paris 1933 pp. 14-19.

المرحلة الثانية : الرعى

تولدت في العقول فكرة المحافظة على الحيوانات التي يصيدونها عند ما لاحظوا فوائد استئناس الحيوان ، وخاصة أنه لا يكلفهم شيئاً ، فالخشائش موجودة في الأراضي المحيطة وكذلك توجد المزروعات الفائضة عن الحاجة ومما ساعد على عنايتهم بالحيوانات واستئناسها أنهم وجدوا فيها مورداً دائماً لحياتهم يريحهم من عناء الصيد وخاصة أن الصيد يفشل كثيراً . وعلى ممر الزمن أصبح الصيد هواية ، وكذلك وسيلة لحماية قطعان الماشية من الحيوانات المفترسة .

وقد ترتب على اكتشاف الرعى أن أصبحت الحياة أكثر استقراراً وأصبح لهم في المرحلة الجديدة وقت فراغ استغله الإنسان في التفكير والتأمل مما أدى إلى تقدم الفنون العملية فعرفوا النباتات الملائمة للحيوانات المستأنسة فعملوا على زيادة إنتاجها وتحسين أنواعها .

وعرف الإنسان في هذه المرحلة كيف يستخدم الصوف في صنع الملابس ، ولقد تقدم الفلك في هذه المرحلة ، لأن الرعاة كانوا يلاحظون الكواكب ليلاً أثناء حراسة قطعانهم .

ولقد ظهرت في هذه المرحلة عادات جديدة منها عادة الكرم والضيافة وكانت تتمثل في الكرم من فرد لفرد ، ومن عائلة لعائلة ومن شعب لشعب ، وأيضاً ظهرت عادة الخير أو الإحسان وإعطاء الغير ، وذلك لأن بعض العائلات أصبحت لها مورد رزق خصص أدى إلى وجود فائض عن الحاجة بينما وجد أفراد تنقصهم الحاجات الضرورية .

وفي هذه المرحلة أيضاً رقت المعاملة في داخل الأسرة عن ذي قبل وأصبح استعباد النساء أقل قسوة ، وترفع نساء الأغنياء عن الأعمال الصعبة .

وفي ذلك الوقت تنوعت الآلات ، وزاد عددها عن ذي قبل ، أما عن

حركة المبادلة فقد انتشرت وزاد نشاطها وظهرت التجارة بمعنى الكلمة ، وشعروا بالحاجة الملحة لمقياس عام للقيم ومن هنا ظهرت النقود .

وقد ظهر التفاوت في الروايات بصورة واضحة في هذه المرحلة إذ أن قطعان الماشية عند العائلات لم تتكاثر بنفس النسبة . وقد زادت عند بعض العائلات بدرجة كبيرة ، مما أدى إلى التفكير في البحث عن أشخاص للعناية بتلك القطعان فوجدوا ضالهم في الأسرى فاحتفظوا بهم كأرقاء بدلا من قتلهم .

أما من الناحية السياسية فقد زاد عدد السكان في هذه المرحلة إذ تجمعت المعاشر في وحدات اجتماعية أكبر وهي القبائل ، وكل مجموعة متشابهة من القبائل انتظمت في أمة ، وكان لكل أمة رئيس للحرب . وكان السن والخبرة والبطولة والثروة من العوامل الهامة في اختيار الزعيم أو الرئيس سواء على مستوى المعشر أو القبيلة أو الأمة . وكان رؤساء القبائل والمعاشر يحلون المنازعات بين الأفراد أو الجماعات وفق العرف والعادات التي أصبح الجميع يحترمونها وقد ساعد هذا التنظيم الاجتماعي على تقدم المجتمع .

ولقد تقدمت اللغة فأصبحت غنية بالتعبيرات والمعاني ، وكذلك الحالة بالنسبة للأغاني والشعر والآلات وكان طول وقت الفراغ من العوامل الهامة في تقدم هذه الظواهر .

وفي هذا العصر أيضاً ، وضع أساس الرق وعدم المساواة في الحقوق السياسية بين البالغين .

ونلاحظ تقدم الأديان غير السماوية التي يسميها كوندورسيه بفن خداع الناس لأنها في ذلك الوقت كانت ترمي للسيطرة على عقول الأفراد ، ففي تلك المرحلة وجدت عقائد منظمة وأفكار واضحة وظهرت طبقة حاكمة من الكهنة وهؤلاء من العائلات والقبائل المقدسة . وكان يجمع الكهنة بين الطب والفلك وهذه بعض وسائلهم للسيطرة على عقول الأفراد .

وبالرغم من انتشار الرعى كمورد للحياة ، ففي بعض الأماكن جمع الإنسان بين منتجات الماشية وما تقدمه الأرض من حبوب وفاكهة ، وفي هذه الأماكن بدأ الإنسان يهتم بالخضروات وأخذ يبحث عن الأنواع اللذيذة وبدأ الإنسان يستنسخ طعم الخضروات والحبوب ويكثر منها وخاصة في الأماكن الخصبة ، واستطاعت أعداد كبيرة من الأفراد العيش في الأماكن الخصبة ، بينما لا تستطيع تلك الأعداد من البشر العيش على نفس مساحة الأرض إذا اعتمدت على الرعى ، ولهذا فإنهم استخدموا الحيوانات في عمليات الزراعة وعندما تقدمت آلات الحرث والفلاحة ظهرت أهمية الزراعة على أنها وسيلة خصبة للحياة ، وفي هذه اللحظة وصل الإنسان للمرحلة الثالثة وهكذا يسير الإنسان في طريق التقدم^(١).

المرحلة الثالثة : الزراعة . . . حتى اختراع لغة الكتابة

يبدأ كوندرسيه كلامه عن هذه المرحلة بالقول بأن التشابه الذي وجد ولاحظناه بين المرحلتين السابقتين يختفي في هذه المرحلة أى أن هذه المرحلة الثالثة تختلف عن المرحلتين السابقتين .

تميز هذه المرحلة بالحروب والغزوات وتكوين الإمبراطوريات وسقوطها ، وكان من نتائج هذه الحوادث أن تكونت أمم وتجمعت عائلات وتفرقت أخرى وتجمعت شعوب مختلفة في أمة واحدة ، ولكن هذه الحوادث من حروب وتكوين إمبراطوريات وأمم ليست واضحة المعالم لقدمها ولكن الآثار المترتبة عليها يمكن ملاحظتها في حياة الناس في ذلك الوقت ، وأحياناً في حياتنا نحن أنفسنا .

في هذه المرحلة انتشرت الفنون العملية وتعقدت وبالتالي زاد نشاط الإنسان وأصبح ينفذ العمل بدقة وبسرعة أكثر مما سبق ويبدل مجهوداً أقل مما كان يبذله قبل ذلك ، ولقد تعددت المهن وأصبح هناك تخصص في شئون الزراعة وآخر

في صناعة الآلات وثالث في حراسة حيوانات الرعي وتخصص آخر في صناعة القماش .

وبجانب هذه المهن انتشرت ونمت التجارة وأصبحت تشمل بضائع كثيرة ، وأصبح هناك طبقة من الناس متخصصون في شراء البضائع وحفظها ونقلها ثم بيعها من جديد بثمن أعلى ، ولقد لاحظنا في المرحلة السابقة وجود ثلاث طبقات : طبقة الملاك وطبقة الخدم والعمال وطبقة العبيد ، أما في هذه المرحلة فقد أضف طبقتين جديدتين وهما التجار والصناع .

ومن حيث التشريع وإصدار القوانين أصبح هذا المجتمع المعقد الجوانب في حاجة ملحة إلى قوانين أكثر انتظاماً وقوة من القوانين السابقة بحيث تحدد عقوبات للجرائم المتعددة وتحدد أيضاً صوراً وأشكالاً للاتفاقات التي انتشرت مع انتشار التجارة والصناعة والمهن .

أما من ناحية التعليم ففي العصور الأولى أي المرحلتين السابقتين كان التعليم في المنزل ، فكان الأب يعلم الأبناء الأعمال الشائعة والفنون التي يعرفها ، وكان يلقيهم القصص والأساطير والتقاليد والقواعد الخلقية البسيطة وكذلك تاريخ الأسرة ، وكان الأبناء يتعلمون من زملائهم الغناء والرقص والتأريخ العسكرية ، أما في هذه المرحلة فكان أطفال العائلات الغنية يتلقون نوعاً من التعليم الجماعي في المدن ، وكان يقوم بالتدريس كبار السن ، وفي بعض الأحيان كان يجتمع الأطفال في منزل الرئيس حيث يتلقون عرف وتقاليد البلاد ، وكذلك فن إلقاء الشعر وغناؤه .

ومن ناحية علاقة الرجل بالمرأة ، أصبحت العلاقة تقوم على مقدار كبير من المساواة ، فقد تغيرت تلك النظرة القديمة التي تعتبر المرأة عبداً عديم الفائدة ، وأصبح الرجل في هذه المرحلة ينظر إلى المرأة على أنها زميلة تحقق الخير له ، ولكن لم تكن تلك المساواة كاملة فلم تطبق في الواجبات وفي حق الانفصال وفي عقوبة الخيانة .

وكان رئيس الأمة في هذا العصر يحكم حكماً استبدادياً وكثيراً ما يؤدي طمعه وغروره إلى ارتكاب الكثير من الجرائم التي مبعثها الانتقامات الشخصية ، وقد زاد الظلم والاستبداد في كثير من الأمم إلى حد جعل صبر الشعوب ينفد ، فناروا وأعدموا هؤلاء الرؤساء وعائلاتهم وأحياناً كانوا يكتفون بطردهم أو بإجبارهم على الخضوع لمبادئ العدالة .

ولو أن تاريخ الجمهوريات يرجع إلى المرحلة القادمة إلا أن هذه المرحلة تقدم لنا خطوات تمهيدية فقد أخذ الاستبداد في الانكماش وبدأت الشعوب في التخلص من العبودية المفروضة عليها بالقوة .

ويرى كوندرسيه أن أصل الاستبداد يرجع إلى أن الملوك والرؤساء كانوا محوطين بالحراس المسلحين الأقوياء ، وكان الملوك يغدقون على حراسهم الأموال بغير حساب ولهذا كان الحراس ينفذون جرائم الملوك دون مناقشة أو تأخير .

وفي هذه المرحلة ظهر الإقطاع الذي تولد مع الحروب وما تحويه من انتصار شعب على آخر ، فكانت الأمة المنتصرة تستبدت بالأمة المهزومة عن طريق رجالها الذين يقومون بجباية الضرائب وسلب ثرواتها . وكانت الأمة المنتصرة توزع على جنودها أراضي الأمة المهزومة بمن وما عليها ، وهكذا أصبح سكان الأمة المهزومة عبيداً بصورة أقل وحشية من عبودية العصور السابقة ويعرف هؤلاء بعبيد الأرض ومن هنا نشأ نظام الإقطاع وفيه تمتلك فئة قليلة من الناس مساحات شاسعة من الأرض ، بينما تعمل الغالبية العظمى من السكان كأجراء فقراء في تلك الأراضي ومن هنا نلاحظ أيضاً أن كلاً من الاستبداد والإقطاع قد نتج عن الحروب والقهر والقوة .

وكونت الأمم التي كانت ترجع إلى أصل واحد وتتكلم لغة واحدة اتحاداً يجمعها على أساس الألفة والتعاون وكان من دوافع اتحادهم إما وجود عدو مشترك أو قيامهم بطقوس دينية متشابهة أو أخذهم بالتأثر بصورة جماعية .

وقد لعبت كل من عادة الكرم وحرقة التجارة دوراً كبيراً في خلق علاقات التعاون والألفة بين الأمم المختلفة ، ورغم أن هذه العلاقات كثيراً ما كانت تقطعها حوادث السلب والحرب إلا أن علاقات الألفة كانت أقوى من عوامل الفرقة . ولم يكن هناك نظام عسكري دقيق بل كان كل رجل يملك سلاحاً يعد جندياً والذي يستخدم سلاحه بمهارة أكثر من الآخرين يستطيع أن يصبح رئيساً ، وكان يطيعه الآخرون بصورة إرادية ولذلك لم تكن طاعة عبد لسيدته .

أما الإمبراطوريات التي أسسها الفاتحون والتي قامت على القوة والقهر فقد قدمت لنا أنواعاً كثيرة من الذل والحزى والفساد ، وقد ترتبت هذه الرذائل على الاستبداد والحكم المطلق والخرافة المسيطرة على العقول ، وقد نص القانون على معظم تلك الرذائل ومن أمثلة ذلك ، احتكار الحكام لأموال الشعوب والعقوبات القاسية التي كانت تفرض على الشعوب .

وينتقل كوندرسيه بعد ذلك إلى الفنون العملية : استطاع الإنسان في المرحلتين السابقتين استخدام الخشب والحجر وعظام الحيوانات في صنع الآلات ، وتوصل إلى فنون أكثر صعوبة مثل فن صناعة الفخار وفن نسج القماش وفن إعداد الجلود وفن الصباغة ، وبدأوا في استخدام المعادن ، ولقد اختلفت سرعة تقدم تلك الفنون في هذه المرحلة حسب اختلاف المكان ، ففي الأمم التي كانت تعيش في عزلة سار تقدم الفنون ببطء شديد ، أما في الأمم التي كانت تحتك وتتصل ببعضها كانت الفنون تتقدم بسرعة . ومن العوامل التي عرقات نمو وتقدم الفنون العملية الجروب والفتوحات والاستبداد وسيطرة الخرافات على الشعوب فبينما نجد بعضها يتمتع بتقدم وازدهار في الفنون العملية ، نجد شعوباً أخرى غارقة في جهل مطلق وانحطاط تام .

أما عن العلوم فقد تقدمت في المجتمعات الهادئة المستمرة أي التي بقيت مدة طويلة ولم تمت أو تهزم ، وهذه العلوم هي الفلك والطب وأفكار بسيطة في التشریح ومعرفة المعادن والمزروعات والمبادئ الأولى لدراسة الظواهر الطبيعية

وقد تقدمت تلك العلوم ببطء عن طريق تنوع وتراكم الملاحظات . ويرى كوندروسيه أن رجال الدين والسحرة والمشعوذين كانوا يستخدمون الزهد والتقصف والفضائل الظاهرية كوسيلة لخداع الشعب والسيطرة عليه بالخرافات وكانوا يحاولون الوصول إلى اكتساب معاومات جديدة أو معارف وعلوم جديدة وكانوا يحتفظون بما يعرفونه من مبادئ العلوم ولا ينشرونها بين الناس ، وكانوا يستخدمون تلك المعاومات في خداع الأفراد والسيطرة على نفوسهم ومن الممكن تحديد درجة تقدم العلوم في تلك المرحلة فيما يأتي :

الفلك :

كان حكماء هذه المرحلة مهتمين على الخصوص بالفلك ولقد وصلوا فيه إلى أعلى درجة من المعارف يمكن الوصول إليها بغير استخدام النظارات المقربة أو النظريات الهندسية ، فعن طريق ملاحظاتهم المستمرة للكواكب استطاعوا التنبؤ بالظواهر الفلكية ، ولكن لم توصل تلك الملاحظات هؤلاء الفلكيين إلى القوانين العامة ، وساعدت تلك المعلومات على إشباع حب الاستطلاع عند الإنسان :

الحساب :

نلاحظ أنهم لم يصلوا إلا إلى العمليات الأولية في الحساب ، ومن المحتمل أننا ندين لهؤلاء إلى تلك الفكرة الممتازة عن التدرجات الحسابية وهي الطريقة التي تقدم كل الأعداد الممكنة بواسطة عدد صغير من العلاقات أو الرموز وتساعد تلك العملية على تقوية العقل البشري .

الهندسة :

اقتصرت على الأمور الضرورية الخاصة بالمساحة والفلك العملي .

الطب والجراحة :

درسوا على الخصوص ما هو متصل بمعالجة الجروح ولكنهم أهملوا علم التشريح .

علم النبات والتاريخ الطبيعي :

توصلوا إلى معلومات قليلة تولدت عن استخدام بعض النباتات وبعض المعادن في نواح عملية تماماً .

الكيمياء :

لم تكن إلا فن إعداد بعض التركيبات أو معرفة بعض الأسرار التي تستخدم إما في الطب أو الفنون أو السحر ، وكانت الكيمياء في ذلك الوقت خالية من النظريات ومن المنهج .

يرى كوندروسيه أن تقدم العلوم في هذه المرحلة لم يكن إلا وسيلة لتقوية سلطان الحكم وليس لتقدم العلم في ذاته فهذه غاية ثانوية ، ويقول إنهم لم يبحثوا عن الحقيقة إلا ليزيدوا أخطاءهم . ويرى أيضاً أن هذا التقدم الذي شرحناه سابقاً ، رغم ضعفه وبطئه ، لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقت معرفة الكتابة لأنها الطريقة الوحيدة لنشر المعارف وتسجيلها .

التعليم :

اخترعت الكتابة المبروغليفية قبل تكوين الطبقات المتعلمة ، تلك الطبقات التي كان هدفها الأول السيطرة على العقول وخذاع الشعب ، ولذلك لم تكن تعلم إلا ما يخدم مصالحها وكانت تخفي عنه الحقائق وكانوا يخلطون العلوم بالتقديس وبالمعجزات الخارقة للطبيعة وهكذا كان الشعب ينظر إلى الطبقة المتعلمة على أنها طبقة ممتازة سامية من طبيعة أخرى تستمد معلوماتها من السماء ، وكانت

الطبقة المتعلمة تقسم الحقائق والمعلومات إلى قسمين : قسم تحتفظ به كسر ، وطبعاً هو القسم الذى لا يخدم مصالحها ، وقسم آخر تقدمه للشعب فى صورة تساعد على استمرار سيطرتهم .

ويرى كوندروسيه أن تلك الطبقات المتعلمة قد غرمتها سيطرتها على عقول العامة فلم تتابع البحث عن الحقيقة ، بل لم تحافظ على مالديها من معلومات اللهم إلا ما هو ضرورى لاستمرار سلطانها ، ولذلك توقف كل تقدم فى العلوم وهكذا حكم على إمبراطوريات شاسعة فى آسيا وأوروبا بالجهل أزماً طويلاً .

وقد استطاعت فى تلك المرحلة بعض شعوب آسيا اختراع الحروف الأبجدية ، وقد بدأ الطريق الموصل لاختراع الحروف الأبجدية باختراع اللغة الميروغليفية . ولا يوجد دليل يبين لنا بدقة زمان ومكان استخدام الكتابة الأبجدية لأول مرة فى تاريخ الإنسانية . ولقد نقل اختراع الحروف الأبجدية من الشرق إلى بلاد الإغريق ، تلك البلاد التى لعبت دوراً رئيسياً فى تقدم الجنس البشرى وخير الإنسانية^(١) .

المرحلة الرابعة : تقدم العقل الإنسانى فى حضارة الإغريق . . . حتى عصر تقسيم العلوم فى زمن الإسكندر الأكبر تقريباً : لم تستطع اليونان تحمل ظلم واستبداد الملوك فترة طويلة فقامت فيها الثورات وأسست الجمهوريات . ومما ساعد على ذلك اتصال اليونان بغيرها من الشعوب ، فقد كان هناك اتصال بين اليونان وشعوب الشرق ، وكان هذا الاتصال عن طريق المنفيين الشرقيين الذين ياجأون إلى اليونان وعن طريق اليونانيين الذين يسافرون إلى الشرق ، أتاح هذا الاتصال الفرصة ليونان للتعرف على حضارة الشرق ، فأخذوا فزون تلك الشعوب وجزءاً من معارفهم واستعمال الكتابة الأبجدية ونظامهم الدينى ، ويمكن القول أن اليونان نقلت عن آسيا ومصر الحقائق والأخطاء معاً .

(١) المرجع السابق من ص ٢٧ إلى ص ٤٥ .

وأهم ما تتميز به تلك المرحلة أن العلوم في اليونان لم تكن محتكرة لطبقة معينة كما كان الحال سابقاً ، بل هي أمر عام يشترك فيه كل شخص ، وقد اقتضت وظائف الكهنة على عقائد الآلهة فقط ، وبذلك أصبح لكل الناس الحق في معرفة الحقيقة فكل يوناني مهما كانت وظيفته أو طبقته يستطيع أن يبحث عن الحقيقة وأن ينقلها إلى الآخرين ، وهكذا لم تصبح العلوم في تلك المرحلة خاضعة لرجال الدين أو للحكام المستبدين .

أدت هذه الظروف الجديدة الملائمة إلى استقلال العقل الإنساني وإلى ضمان سرعة انتشار وسير التقدم . ولكن رغم استقلال العلوم عن الكهنة فإن حكماء اليونان الذين اتخذوا اسم الفلاسفة أو أصدقاء العلم والحكمة - حاولوا أو أرادوا أن يصلوا إلى طبيعة الإنسان وطبيعة الآلهة وأصل العالم ، وحاولوا إرجاع الطبيعة كلها إلى مبدأ واحد أى إخضاع ظواهر الكون المتعددة لقانون واحد ، وحاولوا إرجاع كل الواجبات الأخلاقية إلى قاعدة واحدة تفسر السلوك كله ، إن البحث في هذه الموضوعات البعيدة جعلهم يركون العنان لخيالهم حتى وصلوا إلى آراء مجردة لا يمكن إثباتها ، وقد أدى اهتمامهم بهذه الموضوعات العميقة إلى إهمال الكشف عن الحقائق ، وكذلك إهمال ملاحظة الظواهر ، وتاهوا في هذا المجال الواسع الذي ليس له حدود .

ولكن رغم هذا ، فإننا ندين لهم على الخصوص بوضع أسس الهندسة والفلك وكذلك بعض الحقائق الجديدة ، وعندما أخذوا المعامات التي اكتسبوها من الشرق هذبوها واستخرجوا منها المبادئ والأدلة ولم يأخذوها على أنها معتقدات ثابتة لا مجال لمناقشتها .

وظهرت في اليونان فكرتان قيمتان ؛ ظهرتا ثانية من جديد في العصور الأكثر تقدماً ، الأولى هي رأى ديمقريطس الخاص بأن ظواهر الكون ترجع لذرات أجسام بسيطة لها شكل محدد ثابت وتتحرك هذه الذرات بسبب دفعة أولى ، والفكرة الثانية هي رأى فيثاغورس القائل بأن العالم خاضع لنظام متسق ومنسجم

تقرر أسسه ومبادئه النسب العددية، أى أنه يريد أن يقول إن كل الظواهر خاضعة لقوانين عديدة .

ولقد اكتشف فيثاغورس النظام الحقيقى للعالم أى الوضع الحقيقى للأجسام السماوية ، ولكن هذا النظام لم تقره الحواس وعارضته السوقة ؛ ولهذا لم يجذب إليه العقول ، وظل محتبئاً فى صدر المدرسة الفيثاغورية حتى ظهر من جديد فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى مؤيداً بأدلة مؤكدة وهكذا انتصرت هذه الفكرة على معارضة الحواس والخرافة .

وانتشرت أضواء المدرسة الفيثاغورية فى كل اليونان ، وأصبح تلاميذها مشرعين ومدافعين عن حقوق الإنسان ، ولكن الاستبداد خاف على سلطانه ، فقام واحد من أنصاره وحرق الفيثاغوريين فى مدرستهم ، وكانت هذه الفعلة دليلاً على جنون أعداء الحرية وتقدم العقل .

ومن الأخطاء التى يرى كوندرسيه أن اليونان قد وقعوا فيها ، أنهم كانوا يؤسسون النظريات العامة من خيالهم بدون الاعتماد على الحقائق الجزئية أو الظواهر ، وكانوا فى الموضوعات البعيدة لا يفكرون فى الوسائل والطرق الموصلة إليها ، فالتفكير النظرى البحت والتأمل العقلى دون الاعتماد على ملاحظة الظواهر والبحث العلمى هو ما يعيبه كوندرسيه على اليونانيين .

ويعجب كوندرسيه بسقراط الذى— أثناء صراعه مع السوفسطائين— صاح فى اليونانيين بأن ينزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وليس معنى هذا أن سقراط احقر الفلك والهندسة وتعصب للدراسات الأخلاقية ، فقد تقدمت تلك العلوم على أيدى تلاميذ سقراط ، وهذا دليل على أن قوله لم يعن قصر البحث على الأخلاق فقط ، لقد قصد سقراط بقوله هذا أن يسير الإنسان فى طريق المعرفة خطوة خطوة وعليه أن يتأكد من كل خطوة قبل الانتقال إلى غيرها وقبل أن يبحث الإنسان فى الأفق الواسع عليه أن يدرس الظواهر المحيطة به والمساحة التى يعيش عليها .

ويرى أن حادثة موت سقراط دليل آخر على استمرار الحرب بين الفلسفة والخرافة ، تلك الحرب التي استمرت إلى عصره وهي تشبه حادثة حرق المدرسة الفيثاغورية ، ويرى كوندروسيه أن تاريخ هذا الصراع بين الفلسفة والخرافة من الموضوعات التي بهم بذكرها في التاريخ الذي يكتبه .

يرجع كوندروسيه ثانية إلى وصف الحالة الدينية عند اليونان ، فيقول إن الكهنة كانوا في غاية الحق لتقدم الفلاسفة ولكثرة أتباعهم ولشهرهم للحقائق وعزهم العلم عن الدين ، وقد دفعهم الغضب إلى اتهام الفلاسفة بالكفر بالآلهة واستطاعوا لإحقاق الضرر بالكثير من الفلاسفة . وأوضح دليل على ذلك سقراط الذي استشهد في سبيل البحث عن الحقيقة .

بجاء بعد سقراط تلميذه أفلاطون الذي كان متأثراً بسقراط وخاصة في أسلوبه المرح وخياله اللامع ، ولهذا نجد محاولات أفلاطون خالية من جفاف المناقشات الفلسفية ، ويدهش كوندروسيه من أن أفلاطون الذي كتب على بابه « لا يدخل عليّ إلا من درس الهندسة » هو نفسه الذي كتب في محاوراته فروضاً باطالة وأوهاماً خيالية ، ولكن هذا التعجب وهذا التناقض الظاهر يختلفان إذا عرفنا أن أفلاطون في هذه المحاورات لم يتكلم باسمه مطلقاً وإنما باسم سقراط ، ثم إن أفلاطون مزود بشك يمنعه من إطلاق العنان للأوهام مهما كانت تلك الأوهام مغرية .

وظهرت في اليونان الكثير من المدارس الفلسفية ، وكثر أتباعها . وأدت إلى انتشار العلوم وإلى تقدم العقل في وقت لم تكن فيه الطباعة قد عرفت بعد ، وكانت الكتابة الخطية شبه نادرة وقد اشتد التنافس بين هذه المدارس لدرجة أن العاطفة الشخصية والتعصب لمذهب معين كثيراً ما كانت تعارض العاطفة النبيلة التي ترمي لتنوير عقل الإنسان ، وقد خلقت هذه المنافسة ذاتها نشاطاً مفيداً ، بل إن ملاحظة هذه الخصومات والخلافات الفكرية قد دفعت بعض الأفراد إلى دراسة الفلسفة بينما لم يكن يؤثر فيهم حب الحقيقة وحدها . وكانت تلك المدارس

تتمتع بجزية كاملة ولم تخضع كما هو الحال عند معظم الشعوب إلى سيطرة الدين والكهنة وكان لكل شخص الحق في فتح مدرسة جديدة، وكان تأثير الفلاسفة قوياً على عقول اليونانيين وفي جميع جوانب حياتهم : عاداتهم وقوانينهم وحكوماتهم وسياساتهم وتصرفاتهم اليومية .

وكانت الفلسفة في هذه المرحلة تجمع كل فروع المعرفة ما عدا الطب الذي كان منفصلاً عن الفلسفة قبل ذلك ، ويمكن معرفة مستوى الطب في هذه المرحلة عند قراءة كتابات هيبوقراط ، ويحدد تقدم العلوم عند الإغريق بالصورة التالية :

العلوم الرياضية :

أسست بنجاح في مدرستي طاليس وفيثاغورس ، ولكنها لم تنفك كثيراً العلوم الهندسية التي وصل إليها الشرقيون في كالياتهم أو مدارسهم الكهنوتية ، وقد قفزت هذه العلوم إلى مرتبة عالية في مدرسة أفلاطون فلقد حل أفلاطون مشكلة المكعب ، واكتشف تلاميذه الأول التابع المخروطي وحددوا نسبة الأساسية ؛ وبذلك فتحوا أمام العقل أفقاً شاسعاً .

علم السياسة :

تقدم في اليونان ؛ فقد ألزم الشعب الفيلسوف بتحرير القوانين وذلك لثقة الشعب بحكم وعدالة الفيلسوف ، ولكنهم لم يفوضوا إليه أية سلطة . ولكن من الأمور المؤسفة تشويه النظم السياسية بالأفكار الخرافية ؛ فقد كانت السياسة لا تزال خالية من المبادئ والأسس الثابتة ، ولهذا نرى المشرعين يتأثرون في علاقاتهم وفي معاملاتهم بعواطفهم ومعتقداتهم ، وهكذا لم يقيموا تشريعاتهم على أساس العقل الذي يقر الحقوق الطبيعية للبشر جميعاً ، وإنما أسسوا قوانينهم بصورة تتيح الفرصة للجماعة معينة أن تتوارث الحكم في مجتمع ما . ويرى كوندرسيه أننا لا نجد بسهولة أية جمهورية يونانية في هذه المرحلة تشبه تماماً

الجمهوريات واليوتوبيات التي صورها الفلاسفة .
 وظهر في هذا العصر نوع من الاتحادات بين الجمهوريات اليونانية ،
 وكانت المعاهدات التي تعقد بين تلك الجمهوريات تحدد بوضوح أشكال
 والتزامات تلك الاتحادات ، إن دراسة الحكومات التي أقيمت في اليونان في تلك
 المرحلة تكفي لإنشاء علم سياسة واضح المعالم .

الاقتصاد السياسي :

ظهرت الخطوط الأولى لهذا الفرع من المعرفة في تلك المرحلة ، فنجد
 الكثير من التشريعات المنظمة للجوانب الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة .
 وهنا يشير كوندرسيه إلى ملاحظة هامة : بينما تقر كل التشريعات والتنظيمات
 اليونانية الرق ، نجد الكثير من الأفكار والنظريات الفلسفية التي تنادي بضرورة
 تحقيق خير وحرية الجنس البشري كله .

التشريع :

قارن كوندرسيه بين التشريعات اليونانية وتشريعات الحضارات الشرقية
 القديمة ، كانت التشريعات الشرقية القديمة تتصف باستعباد الرعية وبتحقيق
 صالح الحاكم وإرادته ، أما التشريعات اليونانية فقد كانت نابعة عن ميثاق
 جمعي بين الرجال وكانت تحتم المحافظة على حرية المواطنين . ويرى كوندرسيه
 أن تلك الاختلافات لا تزال موجودة في العصور الحديثة بين قوانين الشعوب
 الحرة وقوانين الشعوب المستعبدة .

التعليم :

كان التعليم عند الإغريق جزءاً من السياسة ، وكان يرى إلى تكوين مواطنين
 صالحين يفضلون حريتهم لاوطن من حرمهم لأنفسهم ولعائلاتهم . ونظراً لأن مزاوله

الفنون العملية والزراعية كانت قاصرة على العبيد فقد اقتصر التعليم على تمارين الجسم ومبادئ الأخلاق والعادات الحسنة التي تثير الوطنية . وبعد الانتهاء من تلك المرحلة الأولى يصبح الشباب أحراراً في تحديد مستقبلهم ، فقد يلتحقون بالمدارس الفلسفية أو بمدارس معلمى البيان أو باستديوهات الفنانين لتكملة تعليمهم .

الفنون :

تقدمت الفنون عند اليونانيين ووصلت إلى كمال لم يعرفه أى شعب آخر ، ومن أمثلة الفنانين العباقره فى هذه المرحلة ما يأتى :

« هوميروس » Homeros و« ديموستين » Domestene و« پندار » Pendare

و« سوفوكل » Sophocles و« فيدياس » Phidias

ويرجع رقى الفنون فى تلك المرحلة إلى عوامل متعددة مثل عبقرية الفنانين والحرية التى عاشوا فيها ، وقد عمل رقى الفنون على تحسين وتهذيب العادات والأخلاق . ويلاحظ كوندرسيه أن هناك تلازماً بين انتشار الفضائل وتقدم الفنون والعلوم .

ويرى كوندرسيه أن مدحه للإغريق لا يعنى انعدام الرذائل فى تلك المرحلة ، فقد كان هناك بعض الرذائل ، ولكنها ترجع فى الحقيقة إلى العصور السابقة ، وهكذا ورثت الحضارة اليونانية تلك الرذائل ولم تخلقها ، ويعارض كوندرسيه بشدة الرأى الذى يرجع تلك الرذائل إلى تقدم العلوم والفنون عند اليونان ، ويؤكد كوندرسيه أن كل تقدم حقيقى فى العلوم والفنون لا بد أن يتبعه تقدم فى الأخلاق والطباع والعادات ، وكذلك يصرح بأن كل تأخر فى الفنون والعلوم يلازمه دائماً تأخر وانحطاط فى الأخلاق^(١) .

(١) المرجع السابق من ص ٤٦ إلى ص ٦١ .

المرحلة الخامسة :

تقدم العلوم منذ فترة تقسيمها حتى انهيارها : يحدد كوندرسيه عصر تقسيم العلوم بالفترة التي سبقت مباشرة انهيار المدنية اليونانية وسلب اليونان حريتها . كان تقسيم العلوم حاجة ضرورية بسبب اتساع نطاق البحث . وعندما انهارت المدنية اليونانية هرب العلماء اليونانيون إلى بلاد الشرق وخاصة مصر ، وقد منع حكام مصر انتشار المذاهب الفلسفية اليونانية هناك ، ولكنهم شجعوا العلوم لقوائدها العملية ، وأصبحت مدينة الإسكندرية أكبر مركز للعلوم والتجارة في ذلك الوقت .

ومن السهل تحديد بداية عملية تقسيم العلوم ، إذ تم ذلك عندما انفصلت العلوم الرياضية عن الفلسفة وأصبحت الرياضة بعيدة عن المحاولات المدرسية والآراء المذهبية التي كانت تخضع لها الفلسفة في ذلك الوقت ، وترتب على تقسيم العلوم أن أصبحت الفلسفة مقتصرة على مبادئ النظم العامة والميتافيزيقا والجدل والأخلاق ، وكانت السياسة تعتبر في ذلك الوقت جزءاً من الأخلاق . ويتحدث كوندرسيه بعد ذلك عن فروع المعرفة وما أحرزته من تقدم في تلك الفترة ، وفيما يلي ملخص لما ذكره .

العلوم الرياضية :

- تقدمت العلوم الرياضية بدرجة كبيرة بفضل العبقري اليوناني « أرشميدس » الذي وصل إلى اكتشافات متعددة في هذا الميدان ، أهمها ما يأتي :
- ١ - وضع أسس علم جديدة يعرف في العصور الحديثة بالحساب اللانهائي .
 - ٢ - أول من حدد العلاقة بين قطر الدائرة ومساحتها .
 - ٣ - أول من وضع أسس الميكانيكا العقلية .
 - ٤ - اخترع اللولب الذي يحمل اسمه .
 - ٥ - اخترع المرآة الحادة أو الدقيقة .

ولم تظهر بعد اكتشافات أرشميدس في الهندسة والميكانيكا أية اكتشافات مخالفة لما وضعه ، وإنما حقائق جزئية مكتملة لما أسسه .

علم الطبيعة :

لم يعالج أرسطو الطبيعة بنفس الدقة التي عالج بها تاريخه للحيوانات ، ولقد تأثر في بحثه في الطبيعة بالطريقة الفلسفية التي تفترض مبادئ عامة مبهمه ولقد شوهدا بتلك التعميمات ، وقد عالج تاريخ النبات وتاريخ المعادن بدقة كبيرة واعتمد على الملاحظات الدقيقة وقام بتنظيمها وتبويبها ، أما الطبيعة فلم تكن الملاحظة وحدها كافية للكشف عن أسرارها وإنما كانت تحتاج إلى التجارب التي تعتمد على الآلات التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، ولهذا اقتصر علم الطبيعة في ذلك العصر على عدد صغير من المعلومات ترجع للمصادفة وللملاحظات التي تؤدي إلى تطبيق الفنون عملياً ولا تؤدي إلى أبحاث علمية .

فن التشريح :

تقدم ببطء واضح ؛ وذلك لأن الأفكار الدينية كانت تعارض تشريح الجثث ، إذ كانوا يعتقدون أن ملامسة الجثة نوع من الدنس .

الفلسفة :

وجدت أربع مدارس فلسفية في اليونان في الوقت الذي كانت فيه اليونان تنهار أمام الرومان ، هذه المدارس هي :

١ - الأكاديمية : (مدرسة أفلاطون) :

كانت تظهر نزعة الشك وعدم التأكد ، ولقد نسيبت أن الشك إذا زاد عن حده يساعد على الجهل والفساد ، وهذا الخطأ الذي وقع فيه السوفسطائيون وقع فيه أتباع أفلاطون في الأكاديمية ، ولكن هذا الشك

المتطرف لم يشمل كل المذهب الأكاديمي ، فإن الاعتقاد بفكرة أزلية للعدل والجمال والشرف مستقلة عن الأهواء الشخصية مطبوعة في نفوسنا كانت موجودة في الأكاديمية ، وهي الفكرة التي شرحها أفلاطون في محاوراته والتي وضعها كأساس للتعاليم الأخلاقية .

٢ - مدرسة المشائين (مدرسة أرسطو) :

كانت تطبق أفكار أرسطو ولذلك اهتمت بتحليل العقل الإنساني ، وبعد هذا العمل خطوة هامة في سبيل معرفة العقل الإنساني ، واهتمت أيضاً بقياس أرسطو الذي قسم فيه التفكير والقضايا إلى أربعة أنواع ، ثم وضع نظاماً قياسيًّا مكوناً من ثلاث قضايا ينتقل فيه الحكم من الكل إلى الجزء ، ووضع لها قواعد فنية دقيقة وأخذت المدرسة في شرح نظرية أرسطو في الأخلاق وملخصها : أن الفضيلة هي الوسط العدل بين طرفين كلاهما رذيلة .

٣ - الرواقية :

ترى تلك المدرسة أن الخير الحقيقي هو الفضيلة التي هي تحرير النفس من الخضوع للعواطف بحيث لا تشعر بالالذة أو الألم ، وترى أن الإنسان لديه من الإرادة القوية ما يوصله إلى هذه المرحلة ، وتعتقد في وجود عقل عام يحل بهذا العالم ويوجهه ، وتصدر الأرواح الإنسانية عن هذا العقل ، وبعد الموت ترجع الروح إلى أصلها وتتحد بالعقل العام ، والموت عند تلك المدرسة خير والحكيم هو الذي يخضع للطبيعة أي للعقل العام .

٤ - الأبيقورية :

ترى الخير في التمتع باللذة واختفاء الألم والتمتع بميولنا الطبيعية بكامل قوتها ، ويتم ذلك بنزع الخوف والندم والحجل من نفوسنا وتوجيه الميول الطبيعية نحو

الشعور باللذة ، وترى أيضاً أن العالم هو مجموعة ذرات خاضعة في حركتها لقوانين ضرورية ، وأن النفس الإنسانية تتكون من مجموعة ذرات في اللحظة التي تبدأ فيها حياة الجسم وتنفرد في اللحظة التي يموت فيها الجسم وتجتمع تلك الذرات المنفردة في تجمعات جديدة ، واعترفت الأبيقورية بوجود إلهين حتى تمنع ثورة العامة عليها .

وبعد هذا العرض للمذاهب الفلسفية التي وجدت في أثنينا وقت انهيار اليونان ، يقول كوندرسيه إن الجمهوريات اليونانية أنهارت أمام الرومان وأصبحت كغيرها من أجزاء الإمبراطوريات الرومانية تعيش بإرادة وعواطف زعماء روما . ويصف الحياة السياسية في روما المدينة الحاكمة وما فيها من نظام الأشرف المتوارث الذي كان نظاماً ثابتاً قوياً ، وكان الشعب الروماني مدرباً على الأسلحة ولم يكن يستعملها في الفن والخلافات الودية بينهم ، وأخذ الرومان من اليونانيين علومهم وفنونهم وفلسفتهم وبحثوا عن أساتذة يونانيين لتعليمهم فن الفصاحة الذي كان طريقاً موصلاً للثروة ، بل لقد استولوا على التحف اليونانية وأخفوها في إيطاليا ، ولكنها ظهرت بعد ذلك في معابدهم في مدنهم المزخرفة . وكانت العلوم والفنون والفلسفة غريبة تماماً عن التربية الرومانية ، ورغم أن « شيشرون » و « لوكريس » و « سينكا » قد كتبوا في الفلسفة باللغة الرومانية ، فإن أفكارهم لم تخرج عن الفلسفة اليونانية ، ويحلل كوندرسيه هذا الموقف بأن الرومانيين كانوا مشغولين بالحروب ، ثم ظهرت بينهم خلافات أدت إلى وجود جو عسكري طابعه الاستبداد ، وهذا جو غير ملائم للتأملات الهادئة العميقة ولذلك لم تتقدم هذه الأمور على أبلديهم .

ولكنهم اهتموا بدراسة الفقه والقانون لأنه كان من الطرق المؤدية إلى الجاه والسلطان وقد اهتم به ذو الميل الطبيعي للدراسة ، وفي هذا العصر ظهرت في روما القوانين المكتوبة وتعقدت إلى الدرجة التي شعروا فيها بالحاجة لشرح تلك

القوانين ، وراى مجلس الشيوخ أن امتياز شرح القانون أصبح تقريباً مساوياً لحق عمل قوانين جديدة ، ولقد كثر الفقهاء وقوى مركزهم وأصبحوا أقوى من مجلس الشيوخ ذاته لأن عددهم كان كبيراً ، إن الفقه هو العلم الوحيد الجدي الذى ندين به للرومان . ويرى كوندرسيه أننا ندين للقانون الرومانى بالقليل من الحقائق المفيدة والكثير من الأفكار الاستبدادية الظالمة .

كان هناك عاملان يقومان بنشر الفلسفة والعلم والجمع والتوفيق بين المذاهب المختلفة ، هذان العاملان هما وجود شعوب مختلفة فى مملكة واحدة وانتشار كل من اللغة اليونانية واللغة الرومانية بين المتعلمين . وقد ضعفت بالتدريج الاختلافات التى بين المذاهب الفلسفية ، وأدى هذا إلى اختيار المبادئ التى تتفق مع العقل فى كل مذهب والجمع بين هذه المبادئ فى مذهب واحد . ويرى كوندرسيه أننا نرى عند « سنيكا » آثاراً تدل على ذلك .

أما من حيث الدين فقد كانت الأديان متشابهة من حيث الطقوس والتماثيل وبعض الأسرار ولم يكون الكهنة أى اتحاد دينى عام يجمعهم ، وكان يشك الرومان المتعلمون فى تلك العقائد والطقوس وخاصة التضحيات الدموية والأصنام ، ولم يزاول الكهنة أى عمل نحو الحكومة أو القانون أو الأخلاق إذ اقتصر نشاطهم على الدين فقط ، وعند ما اتصلت شعوب الإمبراطورية الرومانية بعضها ببعض ظهرت أشعة التقدم ، ولاحظ المتعلمون أن هذه الأديان كلها ترجع إلى عقيدة واحدة وأن الاختلافات ماهى إلا اختلافات شكلية ، وقد هاجم كوندرسيه تلك الأديان فىرى ان الشعوب السيئة الحظ المهزومة استمرت مرتبطة بالأديان السرية وذلك لأن المصلحة الشخصية للكهنة جعلتهم يوحون إلى الشعب بالمساواة فى العبودية وبأن مباحج الحياة حتمية وبأن الثواب فى الآخرة مخصص للذين يخضعون خضوعاً تاماً للقسوة والذل . وقد انكشف أمر الكهنة بفضل التحليلات الفلسفية الدقيقة وخاصة محاورات أفلاطون وأفكار أرسطو .

ويكرر كوندرسيه أن ثقافة وآداب روما ما هى إلا نتائج ضرورية لتأثير

ثقافة وآداب اليونان ، ولقد تقدمت روما في الشعر والخطابة والتاريخ وفن معالجة الموضوعات الفلسفية والعملية الجافة بأناقة ، حقاً إن اليونان نفسها لم يكن عندها شاعر صور فكرة الكمال كما صورها « فيرجيل » ، ولم يكن عندها مؤرخ في مرتبة « توسيت » ، ولكن هذه اللحظة من التقدم تبعها انهيار مفاجئ ، إذ أنه منذ زمن « لوسين » Lucien لم يظهر في روما إلا كتاب ضعاف .

ويرى كوندرسيه أن تلك اللحظات من الرقي في مهد الرومان لم تكن منبثقة من ذوق شعبي عام ولا نتيجة عبقرية أمة أو تقدم دولة وإنما كانت من عمل بعض رجال صنعهم اليونان ، ولذلك يقول كوندرسيه إن روما كانت تربة غريبة بالنسبة للآداب التي وجدت فيها .

ولقد اهتمت روما وكذلك اليونان مدة طويلة بفن الخطابة وفن المعاملة وتزيين المرافعات والتقاريرات ، ولكن هذا الفن أصبح مهملاً في العصور الحديثة .

وينتقل كوندرسيه بعد هذا العرض ، إلى الكلام عن الكتب التي كانت موجودة في هذه المرحلة .

فيقول إن الكتب كانت كثيرة بعض الشيء ، وإن مكتبة الإسكندرية ازدهت بكتب القواعد والنقد الأدبي ، ويرى أن اهتمام المطالعين كان منصباً على واضع الكتاب وشهرته وليس على ما في الكتاب من الحقائق والمعلومات ، وهذا يعد تبريراً للخطأ الذي وقع فيه واسعوا الاطلاع أو المطلاعون اليونانيون والرومانيون إذ كانت تنقصهم روح الشك والفحص والبحث عن الأدلة ، ويرى أن عدم اختراع الطباعة في ذلك الوقت كان سبباً هاماً في عدم تعددهم في البحث ، وذلك أثقله النسخ فلم يستطيعوا المقارنة بين الأقوال المختلفة ، ولذلك كانوا يثقون في أول كتاب يقع في أيديهم وكانوا يؤمنون أيضاً بمبدأ فاسق معين ويقبلون كل ما يجيء به هذا المبدأدون تحييص . ويرى أن التمهص الدقيق العامي لم يحدث إلا في القرن الثامن عشر . وساد الاعتقاد بين المذاهب الفكرية

المختلفة في روما بظهور مسيح أى رسول من الله يصلح الجنس البشرى ، وقامت المحاولات حول تحديد زمن ومكان ظهوره ، وحقاً جاء الرسول عيسى (عليه السلام) وظهر في فلسطين وأتى بمعجزات فاقت ما جاء بها الأنبياء السابقون .

وكان المدافعون عن المسيحية يكرهون تقدم العلوم الطبيعية لأن تقدمها كان يضعف إيمان الناس بالمعجزات التى تعترف بها المسيحية ، ولذلك كان انتصار هؤلاء المدافعين علامة لانهباء العلوم والفلسفة ومما ساعد على هذا الانهباء عدم اكتشاف الطباعة في ذلك الوقت ، فقد كانت الكتب المكتوبة باليد قليلة جداً غير منتشرة ولا يقتنيها إلا الأغنياء ، وكان من السهل على الحكام إخفاء تلك النسخ القليلة ، ويرى أن الأبحاث المتفرقة لم يكتب لها البقاء وذلك لأنه لم ينسخ إلا الكتب التى اشتهر مؤلفوها ، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى عدم تقدم العلوم ، بل كانت العلوم مدفوعة بقوة هائلة إلى الانهباء ، ويعطى كوندروسيه لعدم اكتشاف الطباعة أثراً كبيراً في انهباء العلوم في ذلك الوقت ، ويرى أنه بعد اختراع الطباعة لم يكن لرجال الكنيسة نفس القوة في هدم العلوم^(١) .

المرحلة السادسة :

فترة انهباء العلوم حتى بداية تقدمها ثانية في زدن الحروب الصليبية انهارت العلوم في هذا العصر وسادت التساسس وسيطر الجهل ، ورغم ذلك استطاع بعض العباقرة أن يشقوا طريقهم بصعوبة كبيرة في ذلك الغلام الدامس ، ويقسم كوندروسيه بحثه عن ذلك الدور إلى قسمين قسم خاص بالغرب والآخر بالشرق .

(١) المرجع السابق من ص ٦١ إلى ص ٨٩ .

أولاً - الغرب :

وقع الغرب في أيدي البرابرة الغزاة ، ورغم اعتناقهم المسيحية فقد أشاعوا الفوضى والهمجية في ربوع أوروبا . ورغم هذا تحطم الرق وألغى في ذلك العصر ، إذ عندما فتح البرابرة روما انضم العبيد إلى جيوش الفاتحين وكون بعضهم قبائل تدين بالولاء للأمة المنتصرة ، وعمل البعض الآخر كخدم في منازل الفاتحين ، ولم يهتم البرابرة باقتناء العبيد أثناء حروبهم ، بل كانوا يبحثون عن الأراضي والمستعمرات ، وبما ساعد على إلغاء الرق مبادئ المسيحية القائلة بالأخوة والحب إذ نادى القساوسة في مواظهم بإلغاء الاستعباد وبما زاد تحمسهم عدم وجود مصلحة شخصية لهم في بقاءه ، ويعد هذا التغيير نواة لثورة كبيرة في حقوق الجنس البشري للوصول للحرية الحقيقية .

احتفظت روما بشيء من الاستقلال في ذلك العصر لأنها كانت في حمى رئيس الديانة ، وكان القساوسة رغم خضوعهم للبابا يكونون قوة منافسة له . وحاولت روما فرض سلطان القساوسة على العالم أجمع فكانت في كل أمة جيشاً منهم يقوم بنشر الحرافات الخادعة والتعصب الأعمى والفتن الأهلية ، بل لقد أباحوا باسم الله الحيانة والقتل والرشوة والكذب والخداع ، وكانوا يوجهون الملوك والشعوب وهكذا سيطروا على القوة دون امتلاكها .. ويستطرد كوندرسيه في وصف ما قاسته الشعوب من استبداد وظلم الملوك والقساوسة ، ورغم قساوة القوانين وعدم دقتها كان المهتم يستطيع شراء العقوبة المفروضة عليه بقدر معين من المال يحدده القانون الذي كان يقدر حياة الناس حسب مراكزهم وثروتهم وأصلهم وليس حسب أعمالهم ، وكان القضاة لا يعتمدون على الأدلة في أحكامهم وإنما على الحرافات والاعتقاد في المعجزات .

ثم ينتقل إلى وصف فساد رجال الدين في تلك المرحلة فيعرض بالتفصيل

لصكوك الغفران والأسعار التي حددها القساوسة لتلك الصكوك ، وكان ذلك فرعاً من تجارة كهنوتية مريجة ، فكانوا يقصرون ويطلقون في مدة العقاب التي سيقضيها الفرد في الجحيم بعد موته وهذا أولاً بالنسبة للأحياء ثم بالنسبة للآباء والأصدقاء من الأموات ، ووصل بهم الهوس إلى بيع أقدنة في السماء بأثمان معينة . وكانوا يجبرون المملوك على حرق وإعدام كل من يجزؤ على الشك في عقائدهم أو على الكشف عن جرائمهم ، وكان هذا العقاب نفسه مطبقاً على رجال الدين أنفسهم إذا ثاروا على جرائم إخوانهم .

ثانياً - الشرق :

رغم ظهور الكثير من المشاجرات والمعارك الدينية في الشرق في ذلك العصر ، فقد كان التعصب الديني أقل توحشاً وقسوة مما كان عليه الحال في الغرب ، وكانت الأوهام التي سادت الشرق أكثر رقة وأقل خيالاً مما سيطر على العقول في الغرب ، ويؤكد كوندريسيه أن الشرق لم يصل إلى درجة الانحطاط والهمجية التي وصل إليها الغرب في العصور الوسطى ولكن لم تظهر فيه بذور البناء والتقدم من جديد مثل ما حدث في أوروبا .

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن العرب فيقول إنه على حدود آسيا وأفريقيا كان يعيش شعب شجاع هرب من هزائم الفرس والإسكندر والرومان ، يتكون ذلك الشعب من قبائل متعددة لا تربطها أية رابطة سياسية ، ولكنها متحدة في الأصل واللغة والعادات . وفجأة ظهر فيها رجل وحد صفوفهم وعودهم على قبول فكرة الرئيس ، وأقام على بقايا عقائدهم المتفرقة ديناً جديداً أكثر نقاء وطهارة ، كان هذا الرجل مشرعاً ونبيّاً وقاصياً وإماماً وقائداً للعيش في وقت واحد . واستخدم النبي محمد (صلعم) كل الوسائل التي تخضع الرجال ، وعرف كيف يستخدمها بحبرة ولكن في عظمة وهيبة ، وهكذا كسب المعارك ونشر الدين الجديد وقد لازمته

الصلاة في كل لحظاته . ويعرض كوندرسية لحادثة تشير إلى عدل الرسول فبعد أن وصل النبي إلى مراكز القوة جمع الناس في أحد الأيام وأعلن أمامهم أنه إذا كان قد اقترف ذنباً فهو مستعد أن يفعل ما يطلب منه في سبيل إصلاح ما وقع فيه من خطأ ، وصمت الجميع أمام النبي إلا امرأة واحدة تقدمت وطلبت منه مبلغاً صغيراً من المال .

وقد ساعد الدين الجديد على تطوير أخلاق العرب وعاداتهم فأصبحت رقيقة ، وقد كتبوا شعراً جميلاً وخاصة عندهم حكموا أجمل أجزاء آسيا وأوروبا ، أما في الأوقات التي هدا فيها الحماس الديني بسبب الهزائم فإن الذوق في الآداب والعلوم أخذ ينحصر في الدعاية لعقيدتهم ، وقد تقدمت العلوم بدرجة كبيرة عند العرب إذ درسوا أرسطو وترجموا كتبه ، ووضعوا أسس الفلك وعلم البصريات وكل فروع الطب ، وغذوا هذه العلوم بكثير من الحقائق الجديدة ، ويرجع إليهم تعميم استعمال الجبر بعد أن كان عند اليونان قاصراً على نوع واحد من التمرينات واخترعوا الكيمياء وهي علم تحليل الجسم المركب وتحويله لعناصره البسيطة وتوصلوا إلى الكثير من قوانينها . وقد تقدمت العلوم عند العرب عندما عاشوا في حرية ، ولكن لم تستمر تلك الحرية إلا قليلاً وحل مكانها الاستبداد وظلم رجال الدين ، وهكذا انهارت الدولة العربية سريعاً فبعد أن كانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى شواطئ الهند انقسمت إلى أجزاء متنازعة ووقعت فريسة في أيدي التتار الذين أشاعوا الفوضى والفساد في معظم ربوعها .

ويحلل كوندرسية الديانة الإسلامية فيرى أنها أكثر بساطة في عقائدها وأكثر تسامحاً في مبادئها وأقل غموضاً في طقوسها وهو يقارن هنا بينها وبين حال المسيحية في القرون الوسطى في أوروبا ، ويقرر أنه في الوقت الذي سادت فيه حضارة عظيمة في الشرق نجد الغرب خاضعاً للجهل والفوضى والتعصب . ولقد فقد الجنس البشري معظم الآثار العربية ولكن استمرت بعض تلك الآثار في صورة جديدة وهي النهضة الأوروبية التي صاحبت ظهور أشعة الحرية في أوروبا ، وأخيراً

يقرر كوندرسيه أن العبقريه في الشرق كما كانت في اليونان تلازم دائماً الحرية إذ تعيش بها وتموت معها^(١) .

المرحلة السابعة : منذ بداية تقديم العلوم في الغرب حتى اختراع الطباعة :

نشط العقل الإنساني بالتدرّج بعد فترة الركود الطويلة السابقة ، وكان لهذا النشاط أسباب كثيرة ، فقد أثار تعصب رجال الكنيسة واستبدادهم وآثامهم ونفاقهم النفوس الطاهرة والعقول السليمة ذات الشجاعة التي أعلنت الحرب عليهم ، وقد كشف الجميع حقيقة رجال الكنيسة عندما لاحظوا التناقض الواضح بين سلوكهم وأقوال الإنجيل .

فقامت مقاطعات في وسط فرنسا بالدعوة لمذهب أكثر بساطة يتلخص في مسيحية خالصة يخضع فيها الإنسان لله وحده وينفذ أحكام الكتاب المقدس ، وأثارت تلك الدعوة حقد رجال الكنيسة فقاموا بتشكيل محكمة من الرهبان تسوق الموت لكل شخص يستمع إلى عقله ، فشنقوا الكثيرين ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على تلك الروح التي انتشرت سرّاً بين الناس ، وعندما اخترعت الطباعة أصبح هذا التقدم من القوة والانتشار بحيث خلص جزءاً كبيراً من أوروبا من عبودية رجال الكنيسة الكاثوليكية وقويت حركة الصراع بين الاستبداد الديني والعقل ومبادئه ، وظهر صراع بين الحكومات ورجال الدين وقامت معارك بين الملوك والأشراف ، وأصبح التنافس صريحاً بين الملوك والبابوات ، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى استقلال عدد كبير من مقاطعات إيطاليا ولم تصبح إيطاليا خاضعة لسيد واحد .

وأمام هذا الهجوم على استبداد رجال الدين ، اضطرت القساوسة أن يدرسوا ويقرأوا حتى يحسموا أنفسهم ويبرروا سلبهم للأموال كي لا يتحملوا إلا أقل الخسائر أمام المدعين والمطالبين بحقوقهم ، ولقد دفع الحماس الديني الغربيين

(١) المرجع السابق من ص ٩٠ إلى ص ١٠٣ .

إلى غزو الأماكن المقدسة الخاصة بموت ومعجزات المسيح (يقصد الحروب الصليبية) . إن هذه الحروب التي شنتها الأفكار الخرافية الدينية كانت سبباً في القضاء على هذه الأفكار ذاتها ، وذلك لأنها أدت إلى اتصال الشعوب الغربية بالعرب وأدت إلى التعرف على دين جديد مشابه للمسيحية في نواح ومختلف في نواح أخرى ، هذا الاختلاف جعل الغربيين يشعرون بوجود مشكلة أمامهم ، وبالإضافة إلى ما سبق فقد أنشأت الحروب الصليبية علاقات بين الغرب والشرق أهمها ظهور تجارة البندقية وخنوة ، وقد تعلم بعض الغربيين اللغة العربية وقرأوا كتب العرب وانتفعوا من علوم العرب واكتشافاتهم ونظرياتهم ، ولم يصل الغربيون إلى الدرجة التي وصل إليها العرب في علومهم . ولكن كان لديهم الطموح للمساواة بهم .

قلنا سابقاً إن عدداً كبيراً من مقاطعات إيطاليا قد استقل وكوّن جمهوريات تشبه جمهوريات اليونان ، وحدث نفس الشيء في شمال ألمانيا حيث استقلت المدن . وظهرت في هذا العصر في كل الأمم الكبيرة مثل إنجلترا وفرنسا دساتير غير ناضجة وغير كاملة ، وذلك لأنها كانت تقوم على أساس التمييز بين الطبقات وإعطاء امتيازات للأشراف « والبارونات » ، أي كان يسود تلك الدساتير الطغیان والاستبداد ، ورغم هذا كانت تلك الدساتير ذاتها أساساً للحرية التي لم يكن أحد يتصورها أو يعقلها في هذا العصر ، فلم يتصور أحد أن تلك الحقوق التي يمحسون بها طبقة الأشراف هي حقوق طبيعية للجنس البشري أجمع ، واستطاعت الشعوب عن طريق الثورات تعميم تلك الحقوق بحيث تشمل الفقير والغنى .

ثم ينتقل كوندروسيه إلى الكلام عن العلوم والفلسفة في هذا العصر .
لم ترتق السياسة والتشريع والاقتصاد السياسي إلى مستوى العلوم إذ لم يهتم أحد بالتمعق والبحث في مبادئها ، ورغم هذا فقد تقدمت عن طريق الخبرة والاستفادة من النتائج العملية .

الفلسفة :

عرفوا أرسطو عن طريق الترجمات التي قام بها العرب ، وسيطرت فلسفة أرسطو على مدارس هذا العصر ، وهي نفس الفلسفة التي كانوا يهاجمونها قبل ذلك . لم تؤد فلسفة أرسطو إلى تقدم هذه المدارس ، ولكنها ساعدت على تنظيمها ووضع منهج للمناقشة أقوى من طريقة المناقشات الدينية . ولم تصل تلك المدارس إلى الكشف عن الحقيقة ولم تناقش الأدلة ولكنها حمست الأرواح ، وظهر ميل واضح لضرورة تقسيم الأفكار وتنظيمها وكان هذا التقسيم الأصل للتحليل الفلسفي الذي هو المنبع الحصب لتقدمنا .

العلوم الطبيعية :

لم تصل هذه العلوم عندهم إلى ما وصلت إليه عند العرب ، فلم يكن هناك إلا بعض أبحاث خاصة بالتشريح وتركيبات كيميائية غامضة ودراسات هندسية وبعض ملاحظات على الحساب الفلكي مختاطة بعمليات التنجيم .

الفنون الميكانيكية :

تقدمت تلك الفنون على نقيض العلوم ، فأصبحت بلاد البحر الأبيض المتوسط الأوروبية تنتج الحرير ، وعرفوا الطواحين الهوائية ، وتقدموا في قياس الزمن . ويتميز هذا العصر باكتشافين هامين هما : اكتشاف البوصلة الذي يقوم على أساس معرفة طبيعة حجر المغناطيس الممثلة في اتجاهه إلى اتجاه معين ، وقد عرف الصينيون هذه الخاصية في العصور السابقة . وكان اكتشاف استعمال البوصلة سبباً في نشاط الملاحة والتجارة والوصول إلى كشف العالم الجديد .

أما الاكتشاف الثاني فهو البارود ، وكان لهذا الاكتشاف أثر كبير في الحرب ، إذ جعل الحرب أقل خسارة في الأرواح وتوحشاً في القتال ، وأدى إلى

اختفاء امتياز النبلاء على الشعب باستعمال أسلحة غالية الثمن وجياد سريعة ، إذ أصبح استعمال البارود عاما ، لا فرق بين نبيل وفقير ، وترتب على ذلك مساواة واقعية .

اللغة :

تقدمت ونضجت في إيطاليا ، وكانوا يدرسون النماذج الأثرية القديمة وينقلونها إلى لغتهم الجديدة . ويرى أن اللغة الإيطالية وصلت إلى كمالها تقريباً في القرن الخامس عشر حيث نلاحظ كتابات رقيقة جميلة لكل من « دانتي » و « بوكاسو » و « بترارك » ، وكذلك تهذبت باقي لغات أوروبا ورتت بفضل تذوق الآداب والشعر .

الأخلاق :

بقيت على حالها من الفساد والقسوة والتعصب الديني . وقد حدث تغيير في أخلاق النبلاء (طبقة الفرسان) ، ويتمثل التغيير في شيء من النعمية والرفقة والرق والكرم ، ولكن هذا التقدم كان قاصراً على هذه الطبقة المميزة . أما بالنسبة للشعب فقد استمرت قسوة الحكام عليه واستبدادهم به ، ويرى كوندرسيه أن رقة طبقة النبلاء ترجع إلى العرب الذين من صفاتهم الكرم وقد نقلت أخلاقهم إلى أوروبا عن طريق إسبانيا ، وبذلك وضع العرب بذور الإنسانية التي لا تظهر إلا في عصر أكثر تقدماً من هذا العصر . وكذلك أعد العقل الإنساني في تلك المرحلة للتقدم الذي ترتب على اختراع الطباعة^(١) .

المرحلة الثامنة : منذ اختراع الطباعة حتى العصر الذي فيه أخذت العلوم والفلسفة تهدد الاستبداد :

كان لاختراع الطباعة آثار قوية في تقدم العقل البشري ، إذ جعلت الطباعة للكتاب الواحد نسخاً كثيرة يمكن أن يمتلكها كل من يعرف القراءة والكتابة ،

(١) Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrès de l'Esprit Humain ,

بينما كانت الكتب قبل ذلك مقصورة على الأغنياء بسبب ارتفاع ثمنها ، فقد كانت منسوخة باليد وقليلة جداً ، وبالتالي أصبحت الكتب وسيلة لمخاطبة الشعب أو الشعوب التي تتكلم لغة واحدة ، أى أصبحت نوعاً جديداً من منابر الرأى . ويقارن كوندرسيه بين الكتب المطبوعة وبين الخطابة فيقول إن الكتب أقل حيوية من الخطابة وذلك لأن الخطابة تعتمد على العاطفة أما الكتب فعلى العقل ، ولكن الكتب كوسيلة للاتصال الفكرى أكثر عمقاً من الخطابة، وتؤدى إلى خلق أفكار واضحة أكثر بقاء ، وكذلك تمتاز الكتب على الخطابة بأنها سريعة فى نقل الأفكار إلى الأماكن البعيدة وبأنها أعم انتشاراً . ومن آثار الطباعة أيضاً أن أصبحت المشاكل عامة يلم بها معظم أفراد الشعب ، وأصبح فى الإمكان أن يشعر بتلك المشاكل عدة شعوب فى وقت واحد .

أخذت الكتب تكثر فى جميع فروع المعرفة وفى كل مستويات التعليم ، فظهرت الكتب المبدئية والقواميس والكتب العلمية المفصلة عن التجارب والملاحظات والأدلة ، وترتب على ظهور تلك الكتب المتعددة بكميات كبيرة أن أصبح سير العقل الإنسانى أكثر سرعة وسهولة و يقيناً .

وبعد ظهور الطباعة تحرر التعليم من استبداد الدين والسيطرة السياسية ، وأصبح لكل كتاب آلاف النسخ وأصبح لكل فرد الفرصة للتعليم وللإعتماد على عقله فى تكوين رأى مستقل عن كل سيطرة خارجية ، وقد خاف رجال الدين والمستبدون أن يكشف الناس آثامهم وجرائمهم ، فأخذوا يحرقون النسخ المكتوبة باليد التى تكشف عن حقيقتهم ، وأعلنوا جرباً واهية على العقل ، انتصر فيها العقل فى النهاية .

اكتشفت الطباعة فى عصر يتفق فيه تقريباً حدوث أمرين هامين كان لهما أثر كبير فى تقدم العقل الإنسانى وهما :

١ - استيلاء الترك على القسطنطينية :

أدى ذلك إلى هروب أدباء الإغريق إلى إيطاليا ، وهناك دأبوا على البحث

والقراءة والتأليف ، وكتبوا في أول الأمر نسخاً بخط اليد ، وبعد اختراع الطباعة طبعوا نسخاً تمثل اتجاههاً جديداً في التفكير ، فلم يهتموا كما نادى «أرسطو» بالناحية الصورية بل اهتموا بالبحث عن الحقائق الواقعية ، وتجراً بعضهم ونقد آراء أرسطو وأفلاطون ، ساعد كل هذا النشاط الفكري على سرعة تقدم العقل الإنساني .

٢ - اكتشاف العالم الجديد والطريق الموصول للأجزاء الشرقية من آسيا وأفريقيا :

اكتشف « جاما » الهندي ، واكتشف « كولومبس » عالماً جديداً يمتد من غرب أوروبا إلى شرق آسيا ، وكانت تلك الاكتشافات نتيجة مثابرة وحب استطلاع نبيل ، وقد أدت هذه الاكتشافات إلى تقدم الجنس البشري ، ولكن التعصب والندانة والانهطاط دفع الملوك الصغوص إلى استغلال شعوب هذه الأماكن المكتشفة ، فلم يعاملوهم على أنهم بشر مثلهم . وكان تبريهم لذلك أنهم غير مسيحيين . إن التعصب دفع هؤلاء الملوك إلى القتل والنهب واقتراف كل الآثام التي تحرمها المسيحية ، وتشهد على ذلك عظام خمسة ملايين قتيل مدفونة في هذه الأرض المكتشفة . وقد قتل البرتغاليون والأسبان هذه الأعداد الضخمة في عملية استيلائهم على الأمريكتين . وكان من نتائج هذه الاكتشافات أن عرف المفكرون حقائق جديدة ، منها مدى تأثير الشعوب بالظروف الطبيعية والنظم الاجتماعية وهذا يؤدي إلى اختلافها ، وأيضاً من نتائج تلك الاكتشافات تقدم الصناعة البحرية بسبب نشاط التجارة وبالتالي اتصت الشعوب وانتشرت العلوم والفنون .

ورغم هذه النتائج السعيدة ، فإن استبداد رجال الدين كان موجوداً ولا عقوبة عليه ، ولكن حدثت فضيحة كبرى سجلها رجال الدين إذ أخذ القساوسة يبيعون صكوك الغفران في الأماكن العامة والكباريات . وأدت تلك الفضيحة إلى صيحة عالية من صيحات العقل ، فقد أعلن « لوثر » للناس أن أعمال رجال

الدين المخزية والحقوق التي يدعيها البابا والرهبان هي بدع وليست من المسيحية في شيء ، ووصف ما يقومون به بديانة الكهنة المسيحيين وليست المسيحية ، ودعا المسيحيين المخلصين إلى القضاء عليهم ، وكان يستخدم في محاربته للكهنة أسلحتهم ذاتها من جدال وسعة العلم ، وقد كتب في هذا الأمر باللغة الألمانية واللغة اللاتينية في نفس الوقت . وانتشر مذهب « لوثر » في جميع أنحاء أوروبا ، وقامت حروب بين الأمراء الذين يرغبون في الاستقلال والتوسع وبين الملوك ، وأصبح مركز البابا ضعيفاً ، وأخذ مذهب « لوثر » ينتشر سراً حتى وصل إلى رؤساء الحكومات وإلى رجال الكنيسة أنفسهم . وانتشرت أيضاً مبادئ « ميكيافالي » الدينية وأصبحت عقيدة الأمراء والوزراء ورجال الدين ، وقد أفسدت تلك المبادئ الفلسفة لأنها تنادى بخداع الشعب بأفكار مزيفة ، ولأنها تحتقر حقوق الأفراد في المساواة الطبيعية التي هي أساس الأخلاق . فهم هذه الحقيقة فريق من الفلاسفة الحقيقيين البعيدين عن الكسب المادي ، وحاولوا حمل لواء الإصلاح ، ولكنهم ارتدوا ثانية لأنهم وجدوا التعصب والخرافة والجهل مسيطرين على عقول غالبية الناس .

وظهرت الجمعيات الدينية ، وانقسم المسيحيون إلى طوائف دينية وكانت تلك الطوائف لا تسمح بحرية تفكير كاملة . وأصبحت تلك الطوائف المتناقضة تعيش جنباً إلى جنب في البلد الواحد ، وفي بعض الأحيان كانت تظفي إحدى الطوائف على الأخرى مما يساعد على التعصب ، ولكن انقسام المسيحيين إلى طوائف دينية يدل على وجود حرية للأفراد في اختيار ما يتفق مع عقولهم ، وهنا تولد نوع من حرية التفكير عند المسيحيين في أوروبا .

وقام بعض المفكرين الشجعان ببحث أساس سلطة ونفوذ الملوك وتوصل كل من « لانجيه » و « نيدهام » و « هارينجتون » إلى حقائق هامة منها أن حرية الأفراد لا يمكن أن تباع ، وأنه لا يوجد أي تعاقد يربط مستقبل أمة بأسرة ملكية معينة ، وأن الملوك موظفون عند الشعب وليسوا أسياده ، وأن سلطتهم

مستمدة من الشعب وحده ولا بد أن تستخدم في خدمته فقط وللشعب حق معاقبة وخلع الملوك .

وهناك فلاسفة آخرون أكثر إنسانية نادوا بالمعاملة بالمثل في الحقوق والواجبات بين الشعوب والملوك ، فنادوا بضرورة وجود عقد مقدس يلزم الطرفين بالتزامات معينة ، والشعب له الحق في خلع الملك إذا أخل بالتزامات العقد المقدس . أبعدت هذه الآراء عن الملوك نظرية الحق الطبيعي ، وأحلت مكانها فكرة الحق الوضعي . ودافع عن هذه الآراء الفقهاء واتبعهم الجمهور ثم اتخذها السياسيون أساساً للثورات وللخلافات السياسية ، مما أدى إلى قيام حركات شعبية وثورات في الجمهوريات الإيطالية وفي إنجلترا وفرنسا .

استدعت هذه الحركة انتباه الفلاسفة وجعلتهم يبحثون في آثار القوانين ونظم الحكم على حرية الشعوب وعلى استقلالها وعلى أشكال الحكومات ، وكانت تعد تلك الموضوعات أحد جوانب الفلسفة ، فترى أبحاث « هوبز » و « مورس » . أما « ميكافلي » ومن اتبعه فقد تعمقوا في فحص الحقائق التاريخية للوصول إلى القواعد التي تساعد الحاكم على التحكم في مستقبل شعبه .

وكان من نتيجة اتصال الدول الأوروبية بعضها ببعض ، سواء في الحرب أو السلم ، ظهور الحاجة إلى وضع مبادئ يسيرون عليها في العلاقات السلمية ووضع قواعد أخرى أثناء الحرب من شأنها أن تقلل الأضرار ، وكان اهتمامهم بالحقوق الإنسانية وبالعدالة أقل وأضعف من اهتمامهم بالفرور والطمع واستبداد الحكومات ، ولذلك نرى قواعدهم تبرر جرائم واستبداد الحكام وخاصة ما هو ضد الشعوب والأجناس الأخرى .

لم تستطع الشعوب الاستمرار في تحمل رجال الكنيسة الذين كانوا القضاة والشراح للقواعد الأخلاقية ، وكانت أفعالهم وشرورهم تستحق السخرية لما فيها من فضائح إذ كثرت أعمال العنف والتعصب الأعمى في هذا العصر ففيه المذابح الدينية والحروب المقدسة ، وفيه قتل ملايين من سكان العالم الجديد ، وفيه ساد

النفاق والخداع والإجرام والقتل والتعصب في كل ربوع أوروبا . ولكن رغم هذا الفساد ظهر بعض العباقرة الذين واسوا الإنسانية في محنتها وأنقذوها من الانهيار وكان أهم آثارهم تقدم العلوم وتألقها وازدهارها .

وهنا يعرض كوندروسيه تقدم العلوم في هذا العصر ، وفيما يلي ملخص لما قاله :

١ - نظم استعمال الجبر وأصبح مبسطاً ، وكثر استخدامه بعد اختراع حساب اللوغارتمات ، فسهل تطبيق الحساب واختصرت عملياته المعقدة .

٢ - أدى هذا إلى اعتماد كل العلوم على الأرقام والحساب ، وبذلك أصبحت أكثر دقة ووضوحاً .

٣ - اخترع « جاليليو » قانون سقوط الأجسام ، واكتشف أيضاً عدسات مقربة ، وعندما استخدمها في الفلك وصل إلى نتائج باهرة فقد برهن على وجود كوكب « فينوس » وكذلك اكتشف الأقمار الأربعة التي تحيط بالكوكب « جوبيتر » ، واكتشف أيضاً وجود بقع على قرص الشمس (الكلف الشمسي) .

٤ - توصل « كوبرنيجوس » إلى الكشف عن النظام الحقيقي للعالم وبذلك هدم فرض « بطليموس » لنظام العالم ، وكان فرضاً معقداً يدعو للسخرية .

٥ - توصل « كيپلر » إلى اكتشاف طريق سير الكواكب والقوانين التي تخضع لها .

٦ - تقدم فن الجراحة وأصبح غير منفصل عن الطب .

٧ - حدث تقدم بسيط في الكيمياء والتاريخ الطبيعي ، ولكن لا تزال توجد فيها بعض الأفكار القديمة والخيالات .

ثم ينتقل إلى الكلام عن تقدم الفنون والتعليم ويمكن تلخيص ذلك فيما يأتي :

١ - تقدمت فنون الشعر الحماسي والرسم والنحت إلى درجة من الكمال

لم يصل إليها أحد من القدماء .

٢ - تقدم « كورنين » في فرنسا بفن الدراما إلى درجة راقية .

٣ - تقدمت اللغة الإيطالية وكلمت ، وسارت في طريقها اللغات الأخرى .
 ٤ - ظهرت روح النقد وسيطرت على التفكير ، فأصبح من حق القارئ أن يحكم على ما يقرأه للقدماء أو للمحدثين ، وهكذا أصبح الاطلاع مفيداً حقاً ، وتلك الروح هي أول هجمات العقل على استبداد الملوك ورجال الدين وهي من القوة بحيث تهزم جيوشهم مهما زادت عدداً وعتاداً .

٥ - قل استعمال اللغة اللاتينية في العلوم والفلسفة والفقہ والتاريخ . وحل محلها بالتدرج اللغات القومية في كل أمة ، وقد ساعد ذلك على تقدم العقل الإنساني ، وذلك لأن العلوم أصبحت أكثر انتشاراً ، لأن الكتاب الواحد في بلد ما أصبح يقرأه عدد كبير ، ولكن أدى هذا العامل نفسه إلى أن العلماء وهم أقلية في كل أوروبا لم يستطيعوا قراءة كل الكتب حيث أصبح لكل كتاب لغة خاصة ، بينما قبل ذلك كان هناك لغة واحدة للمؤلفات العلمية في كل أوروبا وهي اللغة اللاتينية . ولم يكن في الإمكان جعل اللغة اللاتينية لغة عامة لكل أوروبا وذلك لأنها تكتب بصورة واحدة وتنطق باهجات مختلفة وتلك اللهجات المختلفة هي أساس اللغات القومية الأوروبية .

٦ - كان التعليم قاصراً لمدة طويلة من الزمن على الكنائس والأروقة ، حتى الجامعات كان يرأسها الكهنة . ولكن بعد ذلك أصبح رجال الدين يسيطرون على التعليم العام والابتدائي الذي يدخله كل من يرغب في التعليم ، أما الفقه والطب والتعليم العالي فقد استقلت عن رجال الدين ، ولكن كان يدخلها أفراد تشبعوا بتعاليم الكهنة في التعليم العام . وحتى في البلاد التي ترك فيها التعليم العام لإشراف الحكومات فإن تأثير رجال الدين لم ينقطع ، وظهر تأثير آخر وهو إخضاع العقول للمسلمات السياسية والأفكار السابقة والتعصب .

كانت هذه كلها عقبات في سبيل تقدم التعليم العام ولذلك كان التعليم يسير بطيئاً . أما الفلسفة فقد تفهقرت إلى الوراء وذلك لأنها في حقيقتها تهاجم مباشرة الخرافات السياسية التي يسير عليها الملوك والنبلاء .

ونلاحظ أن العلوم في تقدمها تختلف من دولة لأخرى وذلك تبعاً لاختلاف الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية ومدى تماسك الشعوب ووضعها الجغرافي وعدد الأفراد الممتازين في كل دولة .

ويتمثل كوندنرسيه بعد تحليله للتقدم الذي حدث في هذا العصر في العلوم والفنون والآداب والتعليم والفلسفة إلى الكلام عن الاضطهاد الذي تعرض له المدافعون عن الحقيقة سواء أكانوا من العلماء أو الفلاسفة أو رجال السياسة ، ويضرب أمثلة لهذا الاضطهاد منها ما قاساه « جاليليو » من اضطهاد البابا له في القرن السابع عشر لقوله إن الأرض تدور .

يلحظ كوندنرسيه أن هناك ثلاثة مفكرين كبار ظهوروا في فترة الانتقال من هذه المرحلة إلى المرحلة القادمة وهم « بيكون » و « جاليليو » و « ديكرت » .

أولاً - بيكون :

اكتشف المنهج الصحيح لدراسة الطبيعة ومعرفة أسرارها ، ويقوم هذا المنهج على ثلاثة أسس هي الملاحظة والتجربة والإحصاء . ونادى بيكون بضرورة إبعاد الأفكار والمعتقدات السابقة عن عقولنا عند دراسة أى مشكلة فلسفية ، إذ يجب عدم قبول أى فكرة مهما كانت بسيطة إلا بعد التأكد من صحتها . ويأخذ كوندنرسيه على بيكون أنه لم يطبق تلك المبادئ على الموضوعات العلمية وإنما قصرها على المشكلات الفلسفية .

ثانياً - جاليليو :

وصل إلى اكتشافات مفيدة ، وحدد الطرق الموصلة للكشف عن قوانين الطبيعة ، وكون أول مدرسة للعلوم ترمي إلى إبعاد تأثير الخرافات والأفكار السابقة والنفوذ السياسي عن التفكير العلمي ، ولم يعترف إلا بالتجربة والحساب كمنهج للتفكير ، ويقرر « جاليليو » أن منهجه لا يستخدم إلا في العلوم الرياضية والطبيعية ، ولا نستطيع تطبيقه في الفلسفة بفرعها .

ثالثاً - ديكارت :

اشتهر بعقبريته في الرياضة ولذلك تخصص في العلوم الرياضية ونبغ فيها . ويلاحظ كوندرسيه أن منهجه يستخلم العلوم الرياضية في جميع موضوعات التفكير الإنساني ومنها الله والإنسان والوجود . اكتشف فرعاً جديداً في الرياضة هو الهندسة التحليلية . ويقرر كوندرسيه أن فلسفة « ديكارت » رغم أنها أضعف من طريقة « جاليليو » وأقل حكمة من فلسفة « بيكون » قد ساعدت على تقدم الجنس البشري بصورة قوية ، إذ حركت العقول وجعلت الناس لا يعترفون إلا بعقلهم ، وقد لعبت حماسة « ديكارت » في عرض آرائه دوراً فعالاً في جذب المؤيدين لفلسفته .

لا يعد العقل الإنساني حتى ذلك الوقت حراً تماماً ، وإنما في طريق الحرية بفضل هؤلاء الذين هاجموا أعداء التقدم وبالتالي حطموا القيود التي فرضت على العقل^(١)

المرحلة التاسعة : منذ ديكارت حتى قيام النظام الجمهوري في فرنسا :

قابل العقل في تقدمه عقبات كثيرة واستطاع في هذا العصر تحطيم معظمها ، وأهم تلك العقبات الخرافة والامتداد ، ولقد زاد في ذلك العصر الامتداد الملكي بصورة ملحوظة لم توجد في الأجيال السابقة ، وأدى ذلك بطريق غير مباشر إلى تقدم العقل الإنساني . فثلاً عندما لا يريد الحاكم المستبد بجانبه أية سلطة فإنه يعمل على إلغاء أو إضعاف امتيازات رجال الدين والنبلاء عن طريق المساواة بين الجميع في الخضوع للقوانين ، وهكذا تظهر قوانين جديدة تقوم على أساس المساواة بين الجميع ، ورغم أن الدافع لهذه القوانين هو الامتداد المطلق فقد استفادت منها الشعوب . وكثيراً ما كانت المصلحة الشخصية لحاكم مستبد تدفعه إلى العمل على تقدم الصناعة والتعليم بغرض زيادة ثروة الدولة ، وذلك يؤدي

(١) المرجع السابق من ص ١١٦ إلى ص ١٤٤ .

بطريقة غير مقصودة إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة .

أصبحت التقاليد والعادات أكثر لطفاً مما سبق ، ويرجع كوندرسيه تلك الظاهرة إلى عوامل كثيرة أهمها ضعف سيطرة الأفكار الشعبية وانتشار روح التجارة والصناعة وظهور أفكار فلسفية جديدة عن الإنسانية وأخيراً التقدم العام البطيء للعلوم . كان التعصب الديني موجوداً في ذلك العصر ولكنه كان أقل همجية وقسوة مما سبق .

توصل المفكرون بعد أخطاء كثيرة وآراء غامضة إلى تحديد حقوق الإنسان وهي تدور حول الحقيقة القائلة بأن الإنسان كائن عاقل قادر على تكوين أحكام عقلية وعلى الوصول إلى أفكار أخلاقية ، ورأى هؤلاء المفكرون أنه لضمان تحقيق حقوق الإنسان والحفاظ عليها يجب على الشعوب اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق تلك الأغراض ، وقد أدى الاعتماد على الشعوب في اختيار تلك الوسائل إلى ظهور مبدأ « الخضوع لرأى الأغلبية » ، وقد ترتب على هذا المبدأ اختفاء فكرة التعاقد بين الشعب والملك ، تلك الفكرة التي سيطرت على العقول في الأزمنة السابقة . ولكن كوندرسيه يعارض القائلين بأن الأغلبية لا تخطئ ، إذ يرى أنه من الممكن للأغلبية أن تخطئ في معالجة بعض الموضوعات ، ولكنه يرى أن تلك المبادئ الجديدة هي أقل فساداً من فكرة التعاقد بين الشعب والحاكم ولكنها في الوقت نفسه ليست أقل سخافة ، وقد نادى بتلك المبادئ كل من « سدني » و « لوك » ، ثم عالجها « روسو » بدقة أكثر فكان لها من القوة والانتشار شأن كبير ، وبين « روسو » أنه لا تعارض بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة ، وحدد معنى الحرية بأنها احترام الإرادة العامة للشعب .

وفي تلك المرحلة ظهرت الحاجة إلى بحث موضوع الثروة والموارد والحاجات وكيفية تحقيق التوازن بين الموارد والحاجات ، ونظراً لعدم فهم الشعوب لتلك الموضوعات الجديدة ، فقد انتهزت الحكومات والطبقات القوية الفرصة وحققت مطامعها وجشعها على حساب الشعوب الفقيرة ، ولكن ظهر أحد أتباع « ديكارت »

وهو « جون دى ويت » الذى بين أن الاقتصاد السيامى هو العلم المتخصص فى دراسة تلك الموضوعات ، ونادى بضرورة إخضاع ذلك العلم إلى دقة الحساب ومبادئ الفلسفة شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى، ولكن لم يحقق ذلك الرأى إلا قليلاً من التقدم . واستمر غموض تلك الموضوعات إلى أن وضع الاقتصاديون الفرنسيون ومعهم « ستيرت مل » و « آدم سميث » أسساً واضحة لهذا العلم الحديث ، وقد نتج عن ذلك تقدم ملحوظ فى تحديد موضوعات ومناهج وأغراض ذلك العلم .

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن نظرية « لوك » ، فى المعرفة ، فيرى أن « لوك » هو أول من حدد أسس التفكير الإنسانى وطبيعة الحقائق التى يمكن للإنسان معرفتها ، ويمدح هذا الفيلسوف فى أكثر من مرة ويلخص نظريته فى المعرفة بأنه نادى بتحليل الأفكار الإنسانية إلى أصولها البسيطة . إذ أن كل فكرة مركبة تحوى بعض الأفكار البسيطة ، وترجع كل فكرة بسيطة إلى ما تتلقاه الحواس من إحساسات ، ويرى « لوك » أن الكلمات والعبارات التى لا ترمز إلى أفكار واضحة والتى لا يمكن تحليلها إلى أصولها البسيطة يجب تجنبها لأنها أساس معظم أخطائنا . وتبنى معظم الفلاسفة هذا المنهج وطبقوه فى العلوم والسياسة والاقتصاد والأخلاق ، وترتب على ذلك أن أصبحت تلك المعارف قائمة على حقائق واضحة وبراهين يقينية ، واستبعدت تماماً الأفكار المشكوك فيها ، ويسمى كوندرسيه هذا المنهج « الميتافيزيقا » ويرى أنها وضعت حاجزاً يمنع الإنسان من الوقوع فى الأخطاء القديمة ، وهى خطوة خيِّرة فى الفلسفة ساعدت على تقدم الإنسان . ولم يهتم كثيراً بنظرية « ديكارت » فى المعرفة لأنها لا تقدم لنا تحليلاً واضحاً مثل الذى قدمه « لوك » .

وظهر فى هذا العصر فى ألمانيا فيلسوف جديد ذو عبقرية عميقة وخيال خصب هو « ليبنتز » الذى وضع مذهباً فلسفياً جديداً يتلخص فى أن العالم يتكون من ذرات بسيطة أهم خصائصها الإدراك والنزوع ، ولقد قسمها إلى ثلاث

طوائف تختلف في درجة الإدراك ، فثلاً الفرق بين ذرات الإنسان وذرات النبات يكمن في الدرجة لا في النوع والحقيقة ، وتخضع هذه الذرات لتناسق أزلى . ولقد اقتنع بتلك الفلسفة عدد من المفكرين الإنجليز الذين كونوا مدرسة للدفاع عن مذهب « ليبنتز » ، ولكنهم لم يكونوا في عمق ومهارة وعبقريّة أستاذهم وتعرضوا لكثير من التفاصيل وجاءوا بكثير من السخافات .

ساعد انتشار الفلسفة وتقدمها على هدم الأفكار الشعبية التي آمنت بها الشعوب زمناً طويلاً ، فقد نادى الفلسفة بضرورة إخضاع جميع الأفكار للعقل الخالص وحده ، وبهذا اختفت الخرافات والأفكار الشعبية المتوارثة من عقول أفراد الشعب بعد اختفائها من عقول الفلاسفة ، وتكونت في أوروبا جمعيات وظيفتها محاربة الخرافات والأفكار الشعبية في الكنائس والمدارس والحكومات ، ولكنها لم تهتم كثيراً بالكشف عن حقائق جديدة ، ومن أهم مؤسسى تلك الجمعيات « كولنز » و « بولنجروك » في إنجلترا و « فونتيل » و « فولتير » و « مونتسكييه » في فرنسا ، كون هؤلاء مدارس وأتباعاً كثيرين ، واستخدموا كل الوسائل لنشر الحقيقة وهدم الخرافة ، وأهم تلك الوسائل الفلسفة والعلم والعبقرية والدهاء ، فكثيراً ما كانوا يتظاهرون بصدّاقتهم لأعداء العقل وبأنهم لا يريدون من رجال الدين إلا تسامحاً جزئياً ولا يطلبون من الحكام إلا حرية جزئية ، وكانوا يعتمدون على الحكومة في محاربة بدع رجال الدين ، وفي الوقت نفسه كانوا يعتمدون على رجال الدين في محاربة استبداد الحكومات ، وأخذوا يتظاهرون بأن أغراضهم بسيطة تافهة وهم في الحقيقة يهدمون الاستبداد والبدع الدينية من أساسها ، وكانوا ينادون بحرية الرأى أى حرية الكتابة على أنها حق طبيعي للإنسان فيه خلاص الجنس البشرى من كل جرائم التعصب والاستبداد ، وكان لهذه الفلسفة أعداء وأتباع في نفس الوقت من الملوك والكهنة ، وكان يعرف رواد تلك الفلسفة كيف يهربون من انتقام الملوك وبتطش رجال الدين ، وكثيراً ما كنا نرى حكومة معينة تكافئهم بيد وتوقع باليد الأخرى قرارات آتاهمهم .

وبالتدريج أصبحت مبادئ حرية العقل والرأى هي عقيدة الطبقة المتعلمة ، وكان يصرح بعضهم بها علناً ويخفيها البعض الآخر عندما تتعارض مع المصلحة الخاصة .

ومن النتائج المتعددة التي ترتبت على تلك الفلسفة ظهور جماعة من الاقتصاديين الفرنسيين (الفيزوكرات) الذين نادوا بمبدأ الحرية الاقتصادية وبتشجيع التجارة والصناعة بالمساواة والتوزيع العادل في فرض الضرائب التي كانت الشعوب تن من سوء توزيعها ، وبالانسجام والتناسق بين جميع الطبقات وجميع الشعوب واحترام الحقوق ، أى كانت تنادى بالإخاء بين شعوب الجنس البشرى . وكان نجاح علماء الاقتصاد في نشر تلك المبادئ البسيطة الخلاصة أقل وأبطأ من نجاح الفلاسفة ، وذلك لأن الاقتصاديين كانوا يحاربون أفكاراً شعبية وأخطاء راسخة في العقول منذ أجيال طويلة ، ولهذا لم يجمعوا حولهم إلا القليل من الأتباع ، ولقد اهتموا بمبادئهم الاقتصادية وتمسكوا بها رغم معارضتها للمصالح السياسية ، ورأوا أن السياسة التي توفر الرخاء لشعبها على حساب فقر وبؤس الشعوب المجاورة ، هي سياسة فاسدة ومحتالة وحقيرة .

انتشرت تلك الأفكار الجديدة في الفلسفة والسياسة والاقتصاد العام إلى أماكن بعيدة جداً بفضل الكتب السهلة ذات المستوى المتوسط ، ولم تستطع أية قوة منع وصول الكتب والأفكار الجديدة إلى أبعد الأماكن . وكان لانتشار التعليم أكبر الأثر في إيمان الشعوب بتلك المبادئ التي أساسها الحرية ، وتكون في بعض البلاد رأى عام ينادى بتلك الآراء ، فنلاحظ رغبة عامة قوية بين الناس في الحرية بجميع أنواعها التي منها حرية التفكير وحرية الكتابة وحرية التجارة وحرية الصناعة ومنع العقاب بدون محاكمة ومنع الجرائم الوحشية والرغبة في تشريع جديد للجريمة أكثر رأفة ورحمة وسن قوانين مدنية أكثر بساطة ومطابقة للعقل والطبيعة وهدم التعصب والتناق وحمية تقدم العلوم . وهكذا أخذت الشعوب تؤمن بالحرية بالتدريج .

وأخذ فلاسفة الأمم المختلفة يدافعون في مؤلفاتهم عن مصالح الإنسانية كماها

بدون تفرقة بين الأمم والأجناس والأديان ، وكانوا رغم اختلاف مدارسهم متحدين في محاربة الاستبداد والتعصب داخل أوطانهم وخارجها ، وهب فلاسفة إنجلترا وفرنسا يحاربون سياسة القتل والسلب التي ترتكب على أراضي أمريكا وأفريقيا وآسيا ، وقرروا أن السود إخوان للبيض وأعضاء في الجنس البشرى في الوقت الذي كان فيه الملوك الأغبياء يحتقرون السود ولا يعترفون بانتمائهم للجنس البشرى .

ولقد ظهر مذهب فلسفى جديد وجه الضربة الأخيرة للخرافات واستبداد الملوك وهو مذهب « رقى الإنسان اللانهاى » الذى نادى به فى أول الأمر كل من « ترجو » و « پريس » و « پرستلى » .

وإذا تأملنا الحالة العقلية للشعوب بعد انتشار الفلسفات السابقة واستمرار استبداد الحكومات يسهل علينا التنبؤ بثورات كثيرة مؤكدة الحدوث ، ولا يمكن لتلك الثورات أن تتحقق إلا عن طريق إحدى عمليتين : إما أن يثور الشعب ويحقق بنفسه المبادئ الإنسانية التى آمن بها وهذه ثورات عنيفة سريعة ، وإما عن طريق قيام الحكومات بتنظيم قوانينها وفقاً للمبادئ الإنسانية ، وتلك ثورات هادئة بطيئة ، وبينما يتطلب الطريق الأول بعض الآلام والتضحيات المؤقتة من الشعوب يجنبهم الطريق الثانى تلك الآلام والتضحيات . ولقد اضطرت الشعوب بسبب فساد الحكومات إلى اختيار الطريق الأول أى الانتصار السريع للعقل والحرية . فقد كانت الحكومة الإنجليزية تعتقد أن الله خلق أمريكا وآسيا وأفريقيا لإشباع ملذات سكان لندن ، فأمرت نواب الشعب الإنجليزي الخاضعين لسيطرتها بالموافقة على استعمار تلك البلاد وإخضاع أمريكا لضرائب باهظة رغم إرادة شعبيها ، ولكن الشعب الأمريكى اقتنع أن الظلم قد تجاوز حدوده فقام بثورة عارمة طرد فيها الإنجليز وأعلن الاستقلال ، وهكذا نرى فى ذلك العصر ولأول مرة شعباً كبيراً يقوم بثورة عظيمة يحقق عن طريقها الاستقلال ، وقد كون جمهورية فيدرالية بسبب موقعه الجغرافى وحالته السياسية القديمة ، وكانت تلك الجمهورية تحدى فى ثناياها ثلاثة عشر دستوراً جمهورياً ،

ونرى في مواد هذه الدساتير ما يرجع لتقدم العلوم السياسية فيقر الحقوق الطبيعية للإنسان ، وما يرجع لتأثير الأفكار الشعبية والأخطاء القديمة . وقد حققت الجمهوريات الأمريكية فكرة تكوين هيئة لإصدار ووضع الدساتير ذاتها على أن تكون هذه الهيئة منفصلة ومستقلة عن الهيئة الخاصة بإصدار القوانين . وانتشرت أبناء الثورة الأمريكية وما حققتهم من مبادئ إنسانية في الأماكن البعيدة من قرى وضياح ، واندحش الأهالي عند ما عرفوا أن لهم حقوقاً وأن أناساً تجرأوا وطلبوا بهذه الحقوق ونالوها . وبينما أخذت أبناء الثورة الأمريكية تنتشر بين الشعوب في أوروبا كانت حكومات أوروبا غافلة عما حولها . وكانت فرنسا أكثر الأمم قابلية للتأثير بتلك الأنباء بسبب تلهف أصدقاء الإنسانية فيها للقيام بثورة مماثلة وبسبب سوء وإهمال وفساد الحكومات الفرنسية ، وساعدت كل هذه العوامل على سرعة ظهور الثورة الفرنسية . وإذا قارنا بين الثورتين نجد أن الثورة الفرنسية كانت أكثر شمولاً وأقل هدوءاً من الثورة الأمريكية ، وكان الحمل الملقى على الثورة الفرنسية أثقل مما ألقى على عاتق الثورة الأمريكية ، فلم تفعل الثورة الأمريكية إلا تأسيس سلطات جديدة مستقلة عن إنجلترا وكانت راضية عن القوانين المدنية والجنائية التي أخذوها عن الإنجليز ولذلك لم يغيروها ، وبعد أن استقلوا عن إنجلترا اتخذوا منها حليفة ، وهكذا لم تؤثر الثورة الأمريكية في الشعب والعلاقات التي بين أفرادها . أما الثورة الفرنسية فهي مختلفة في كثير من النواحي ، فقد قامت على استبدال الملوك وعدم المساواة السياسية في الدستور ، وغرور النبلاء والتعصب الديني وأهوال الإقطاع ، وهكذا غيرت كل العلاقات الاجتماعية الموجودة في المجتمع ، وسيطرت على اقتصاد المجتمع كله ، ومن مظاهر الاختلاف أيضاً أن مبادئ الدستور الفرنسي كانت أكثر صفاء ودقة وعموماً من المبادئ الأمريكية .

انتشرت مبادئ الثورة الفرنسية في أوروبا بالتدريج ، وذلك لأن شعوب أوروبا كانت خاضعة لاستبدال الحكام وتعصب رجال الدين ، ولأول مرة تجرأ الأفراد

أثناء الثورة الفرنسية نادوا بجعل السيادة للشعب وبقيام الشعب بسن القوانين التي تحدد الحقوق والحريات ، وهكذا وصلت الإنسانية إلى حقوقها الطبيعية ، بعد أن قاست الكثير في عصور طويلة من العبودية والاستبداد .

وفي هذا العصر تقدمت العلوم تقدماً كبيراً ، ويعرض كوندرسيه تقدم العلوم والفنون والآداب بالتفصيل ويتلخص ما ذكره فيما يلي :

١ - أدى تطبيق الجبر على الهندسة إلى كشف كثير من النظريات في هذين العلمين ، وأثبت إمكان استخدام المناهج الحسابية في كل الموضوعات الخاصة بقياس الامتداد . وكان ديكارت قد أعلن قبل ذلك حقيقة هامة وهي ضرورة إخضاع كل الحقائق إلى دقة الحساب وتلك هي الغاية الأخيرة للعلوم ، وشجع هذا القول الفلاسفة على البحث عن الوسائل المؤدية إلى هذا الهدف . توصل كل من « نيوتن » و « ليبنتز » لنظريات جديدة في الحساب ، ولم ينته نجاح هذين الفيلسوفين بانتهاء عصرهما ، بل فتحا أبواباً جديدة في الرياضيات أمام العلماء من بعدهم .

٢ - كشف « هيجهين » القوانين الخاصة بحركة الأجسام في دائرة ، وكان لهذا الكشف أثر في وصول « نيوتن » إلى نظرية الحركة ذات الخطوط الدائرية ، وكان للنظرية أثر في كشف « كبلر » فكرة أن الأجرام السماوية تطوف في مسارات بيضاوية .

٣ - توصل « نيوتن » إلى كشف قانون الجاذبية ، وهو قانون عام ساعد على تقدم العقل الإنساني ، وكان للصدفة يد في الوصول إلى ذلك القانون ، هذا بجانب عمق ومجهدات المفكر ، وأتهم البعض « نيوتن » بأنه تأثر بمبادئ الفلسفة الإغريقية عندما أرجع كل الظواهر السماوية إلى سبب واحد عام وهو قانون الجاذبية .

٤ - أكدت الاكتشافات السابقة عن الظواهر السماوية والعلوم الرياضية تقدم علم الفلك الذي كشف نجوماً جديدة ، حدد بدقة موضعها وتنبأ بحركاتها .

٥ - تخلص علم الطبيعة بالتدرّيج من الشروح الغامضة التي قدمها « ديكارت » ، وتخلص أيضاً من السخافات المدرسية ، وأصبح علم الطبيعة قاصراً على دراسة الطبيعة عن طريق الملاحظة والتجربة ، واهتم بتطبيق الحساب في أبحاثه ، وتوصل إلى كشف حقائق هامة أهمها :

(أ) عرف الإنسان ثقل الهواء وكيفية قياسه .

(ب) عرف الإنسان سرعة الضوء .

(ج) عرف الإنسان أن شعاع الشمس يتكون من أشعة أخرى بسيطة لها

ألوان مختلفة .

(د) توصلوا إلى تفسير ظاهرة قوس قزح ، وعرفوا وسائل إنتاج أو إخفاء

ألوانه ، وخضعت تلك الوسائل للحساب .

(هـ) وصل الإنسان إلى نظريات في الكهرباء وعرف سبب الصواعق .

(و) كشف « فرانكاين » عن وسائل لتوجيه الصواعق كما يريد الإنسان .

(ز) اخترع الإنسان آلات جديدة لقياس ثقل الجو ورطوبته وحرارته .

(ح) ظهر علم جديد تحت اسم « ميتيورولوجى » أى علم تغيرات الجو

الذى تخصص فى التنبؤ بالظواهر الجوية .

٦ - وينتقل كوندروسيه إلى الكلام عن مناهج العلوم فيرى أنها أصبحت نقيّة

وكاملة ، وأصبح فن إجراء التجارب وصناعة الآلات أكثر دقة ، وقد قادت

هذه المناهج العلماء للوصول إلى أدق الحقائق وإلى أعظم الاكتشافات .

واستخدمت هذه المناهج الحساب والمقاييس الدقيقة جداً . ولم يبق أمام علم

الطبيعة محاربته إلا الأفكار المسلم بها المتوارثة عن العصر المدرسى ، وكان لتلك

الأفكار أثر كبير فى تأخير تقدم علم الكيمياء ، فقد تصور الإنسان أن علم

الكيمياء يرمى إلى الكشف عن سر صناعة الذهب وسر خلود الإنسان ، ولقد

ملئت عقول الكيميائيين بتلك الحرافات والسخافات ، ولكنهم بدأوا يتخلون عن تلك

الأموار ، وكذلك بدأوا يتخلون عن الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، ويحلون محلها

كيمياء حقيقية تقوم على التجربة والملاحظة والوصول للقوانين الخاصة بتحليل الموجودات إلى عناصرها الأكثر بساطة . وبدأت الكيمياء تتقدم عن طريق هذا المنهج السليم ، وتوصلت إلى قوانين جديدة واستخدمت لغة علمية خاصة تتمثل في اصطلاحات دقيقة للعناصر .

٧ - توصل العلماء إلى تصنيف الموجودات إلى ثلاثة أقسام وهي الجماد والنبات والحيوان ، ودرسوا صفاتها وطبيعتها ، وحلّلوا تاريخ نمو الأجسام الحية سواء بالنسبة للنبات أو للحيوان ، وعرفوا تشريح الأجسام الحية وحددوا الوظائف التي يؤديها كل عضو في الجسم ، ووضعوا حلقات متسلسلة لانتهائية في الطول تبدأ بالإنسان، وتصل في النهاية إلى كائنات عضوية بسيطة ، وعن طريق تلك الجهود ظهر وتقدم علم جديد هو علم التاريخ الطبيعي .

٨ - تقدم علم التشريح الخاص بالإنسان ، ويدخل في نطاقه أيضاً علم وظائف الأعضاء ، وقد عانى ذلك العلم الكثير من التأخير بسبب الحرافات التي تحرم تشريح ولس جثث الموتى، وبما زاد في تقدم هذا العلم اكتشاف آلات أكثر دقة ووضع مناهج جديدة ، وقد لعب الميكروسكوب دوراً كبيراً في هذا الشأن .

٩ - لم تتقدم الفسيولوجيا في العصور السابقة رغم معرفة الدورة الدموية منذ زمن بعيد ، ولكنها استطاعت في هذا العصر الوصول إلى حقائق جديدة هامة ، أهمها تحليل عمبارات المعدة ومعرفة وظائفها وتحديد التغيرات التي تطرأ على الجسم البشري طوال فترة العمر ، وتوصل « هالر » إلى معرفة الأجزاء الخاصة بالإحساس وما يترتب على الانفعال من تغيرات .

١٠ - تقدمت الفنون كنتيجة لتقدم العلوم ، ومن أمثلة ذلك تقدم الفنون الميكانيكية الذي ترتب على اختراع الآلات ، وترجع الآلات بدورها إلى تقدم العلوم الطبيعية والرياضية ، وكذلك اقتبس فن المعماري الكثير من مبادئ علم التوازن ومن نظرية السوائل ، وقد توصل عن طريق تلك المبادئ إلى بناء قباب بصور أكثر سهولة وبدون إضعاف صلابة البناء ، وعرفوا فن استخدام اندفاع

المياه وحساب مقاومة الماء بالأرقام مما ساعدهم على استخدام القنوات بنجاح ومهارة ، وكان لتقدم الكيمياء وعلم النبات والتاريخ الطبيعي أثر عميق في تقدم الفنون الاقتصادية وزراعة الخضروات وفن التغذية وفن حفظ الحيوانات المستأنسة وتحسين الأنواع ، وأخيراً حسن استغلال الموارد الطبيعية . ومن الفنون التي ظهرت لأول مرة فن الجراحة وفن الصيدلة ، ويعتبر الطب من الناحية العملية فناً ، وقد تقدم هذا الفن وتخلص من النظريات الخاطئة . وهكذا أخذت العلوم تقدم النظريات التي يترتب على تطبيقها تقدم الفنون ورفيقها . ويرى كوندرسيه أن الرأي الذي ينادى بعدم فائدة النظريات والفنون البسيطة لا يدل إلا على جهل القائلين به وذلك لأننا عن طريق النظريات منصل بعد إجراء التجارب إلى القوانين الصحيحة ، والفنون البسيطة قد ترقى عن طرق تقدم العلوم وتصبح فنوناً مفيدة .

ويشرح كوندرسيه بالتفصيل الاتصالات التي حدثت بين العلوم ، وبين كيف أدت تلك الاتصالات إلى تقدم العلوم والفنون في تلك المرحلة ، فيقول إن العلوم استفادت كثيراً من تطبيق الحساب ، وتدين العلوم للميكانيكا بالكثير حيث قدمت الميكانيكا آلات في منتهى الدقة مما ساعد على تقدم العلوم ، كذلك قدم التاريخ الطبيعي للكيمياء كثيراً من المبادئ والمعلومات ، ويضيف إلى ذلك الفوائد الجمة التي قدمها حساب الاحتمالات للفنون والعلوم ، فقد ساعد ذلك العلم على تحديد درجات اليقين التي نأمل في الوصول إليها ، وبين أن الكثير من موضوعات العلوم تعتمد في استمرارها وتقدمها على حساب الاحتمالات ، ومن أمثلة ذلك الادخار والتأمين بكل أنواعهما .

١١ - وأخيراً يعرض كوندرسيه تقدم الفنون الجميلة والآداب في ذلك العصر ، فقد تقدمت الموسيقى وأصبحت فناً راقياً يعتمد على الحساب في قياس اهتزازات الأجسام الرنانة ، أما فنون الرسم التي ازدهرت في إيطاليا سابقاً فقد تقدمت في فرنسا وغيرها بصورة أقوى مما كانت عليه في إيطاليا ، وظهر هذا

التقدم في فرنسا بعد فترة طويلة من العقم بسبب مصادفة وجود عباقرة في ذلك الوقت . وينتقل إلى الآداب فيرى أنها تقدمت في فرنسا بصورة واضحة إذ ازدهر فن التراجيديا على أيدي كل من « كوريني » و « فولتير » و « راسين » ووصل فن الكوميديا على يد « موليير » إلى درجة من الرقي لم تصل إليها أية دولة أخرى ، وكان الحال كذلك بالنسبة لفن الشعر ، فإن الذوق الجميل الذي وجد في شعر « سوفوكل » و « فرجيل » وجد مثله في مؤلفات « بوب » و « فولتير » .

أصلحت اللغة الفرنسية وتحسنت بحيث أصبحت جديدة بأن تكون اللغة العامة لأوروبا ، أما اللغتان الإنجليزية والألمانية فلم يصلا إلى مرحلة النضج إلا منذ نهاية القرن الثامن عشر .

تقدم فن التعليم ببطء لتأثره بالمعتقدات المنقولة عن العصر المدرسي ، ولكن انتشار العلوم جعل الناس يبحثون في القواميس والصحف والكتب عن المعلومات التي يحتاجون إليها إذ لم يجدوا ما يشبع حب استطلاعهم داخل جدران المدرسة التي كانت تقدم نظريات فلسفية عقيمة ومؤلفات رجال الدين وما فيها من دعاية ، وهكذا انتشرت العلوم عن طريق الكتب بين متوسطي التعليم .

وبعد هذا العرض لتقدم العلوم والفنون والآداب يذكر كوندرسيه ملاحظة هامة وهي أن تقدم الفلسفة والعلوم قد أدى إلى تقدم الفنون والآداب ، وتقدم الآداب يؤدي بدوره إلى جعل دراسة الفلسفة أكثر شيوعاً ودراسة العلوم أكثر وضوحاً ، وهكذا يتبادل كل من الفلسفة والعلوم والفنون والآداب المعونة من الآخر ، بل إن كلاً منهم يعتمد على الآخر ، وقد تم ذلك رغم جهود الجهلاء والحمقى التي بذلت ولا تزال تبذل لبث الفرقه والعداء بين فروع المعرفة . ويظهر لنا مما سبق أن فروع المعرفة وجميع العمليات العقلية تتكامل وتتعاون رغم ما يوجد بينها من اختلافات في الموضوع والمنهج ، وتتحد كذلك في غرض واحد هو الوصول إلى تحقيق تقدم العقل الإنساني . ويؤكد كوندرسيه استحالة تفهقر أى فرع من المعرفة خطوة واحدة إلى الوراء ، لأن التقدم حتمي ويسير دائماً إلى

الأمام، ولكن قد تختلف سرعة سيره ، ولذلك لا يمكن للجنس البشرى أن يعود ثانياً لهمجية وفساد الماضي ، ورغم أن التقدم الذى حدث لم يشغل إلا جزءاً بسيطاً من العالم فإنه سينتشر وسيعم كل الجنس البشرى فى المستقبل . ويقرر أنه يجب ألا ننسى أن هناك أقطاراً واسعة تعيش فى عبودية وجهل وهمجية ، ولكن سيصل إليها التقدم فى المستقبل القريب عن طريق تقدم العلوم وثورات الشعوب ، ومجذبنا كوندرسيه من المعلومات المتداولة عن الشعوب المتخلفة لأنها مأخوذة من المسافرين وهؤلاء دائماً غير دقيقين لأنهم يلاحظون الظواهر بسرعة وبغير إمعان وبرونها بمنظار الأفكار الشعبية التى تسيطر عليهم ، وغالباً يؤثر فى أقوالهم الغرور القومى والحزل والمصلحة الشخصية .

وهنا ينهى تحليله عن تطور الإنسانية وتقدم العاوم حتى اللحظة التى عاش فيها كوندرسيه ويبدأ فى تحديد معالم تقدم الإنسان فى المستقبل ، أى فى العصور التالية للقرن الثامن عشر (١) .

المرحلة العاشرة : تقدم العقل الإنسانى فى المستقبل (ما بعد القرن الثامن عشر الميلادى) :

يبدأ كدرسيه كلامه فى هذه المرحلة بمحاولة إثبات إمكان التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل بالنسبة للعقل الإنسانى والجنس البشرى ، فيقول إن التنبؤ بالظواهر الطبيعية فى المستقبل يكون مؤكداً تقريباً إذا عرفنا القوانين التى تخضع لها تلك الظواهر ، وتكون نسبة احتمال صحة التنبؤ كبيرة إذا كنا نجهل تلك القوانين ولكن لدينا خبرة عن ماضى تلك الظواهر . وما دام الأمر كذلك بالنسبة لظواهر الطبيعة فما الذى يمنع إمكان التنبؤ بالظواهر الإنسانية المستقبلية ؟ إن الأساس الذى يقوم عليه التنبؤ بالظواهر الطبيعية يمكن أن يوجد ويطبق بالنسبة للظواهر الإنسانية ، ويتلخص الأساس فى أن ظواهر الطبيعة خاضعة لقوانين عرف

Codorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrès de l'Esprit Humain, (١)

الإنسان بعضها ، ولم يعرف البعض الآخر ، وأن تلك القوانين ثابتة وضرورية ، ذلك الأساس نفسه موجود بالنسبة للقدرات العقلية والأخلاقية للإنسان ، فهناك قوانين دقيقة تخضع لها تلك الظواهر الإنسانية . ولتلك القوانين من الدقة والتحليل الكلي ما يوازي دقة قوانين الطبيعة . وهكذا يثبت إمكان التنبؤ بمستقبل الجنس البشرى .

وعند عرضه للمستقبل نلاحظ سيطرة نزعته التفاؤلية على تنبؤاته ولذلك رسم صورة جميلة لمستقبل الإنسان . وتناخص آمانياته التي ستتحقق في المستقبل في ثلاثة موضوعات هي :

أولاً : قيام المساواة بين الأمم .

ثانياً : تقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد .

ثالثاً : الكمال الحقيقي والواقعي للإنسان .

ثم يبدأ في شرح هذه الموضوعات الثلاثة بشيء من التفصيل ، وفيما يلي ما ذكره .

قيام المساواة بين الأمم :

إذا لاحظنا الحالة الراهنة للشعوب (في القرن الثامن عشر) نرى الأوربيين يهاجرون للأراضي التي غزوها ، ويحتكرون التجارة في أفريقيا وآسيا ، ويستخدمون القسوة والخيانة والغدر والتعصب في معاملة الأفراد ذوي اللون المغاير للونهم وذوى العقيدة المغايرة لعقيدتهم . وقد ترتب على استبداد الملوك وتعصب رجال الكنيسة أن ضعفت عواطف الكرم واحترام الغير بين الأوربيين ، تلك العواطف التي دعت إليها العلوم السياسية والتجارية في أول مراحلها . ورغم هذا الظلام الدامس الذى يحيط بشعوب أفريقيا وآسيا فإن كوندرسيه يتفاءل ويتنبأ بأن لحظة الحرية قادمة حتماً . وهناك أدلة تبشر بذلك فقد قام في بريطانيا بعض أصدقاء الإنسانية بالدعوة للحرية والمساواة بين الشعوب . واضطرت الحكومة البريطانية الميكافيلية إلى احترام الرأى العام وأدخلت بعض التعديلات على الدستور

الإنجليزى المستبد . وظهرت فى فرنسا بعض مشروعات تشبه الاتجاه الإنسانى الذى ظهر فى إنجلترا .

وبدأ الاحتكار التجارى يضعف بالتدريج حيث تبين الأمم الأوربية أخيراً أن الشركات الكبيرة ما هى إلا آلات للظلم والاستبداد والسلب والسرقة ، وبدأ الأوربيون يتطلعون إلى تجارة حرة تقوم على أساس احترام استقلال الشعوب غير الأوربية ، وسوف تصل قريباً إلى تلك الشعوب مبادئ الحرية وسوف تنتشر فيها مبادئ العقل والتقدم العلمى الذى يوجد فى أوروبا ، وسوف يضعف سيطرة الرهبان والكهنة على عقول أفراد الشعوب المتخلفة ، وستحل الحقائق المفيدة محل الخرافات التى تسيطر على التفكير ، وسوف تنتشر تلك الحرية إلى الأماكن البعيدة التى لا تستطيع مبادئ الحرية الوصول إليها اليوم ، وسيقوم من أنبأها من ينادى بتلك المبادئ ويتلمذ على عباقرة أوروبا . أما الشعوب البدائية التى أبعدها قسوة مناخها عن المدنية فسوف تتقدم ببطء شديد ، وكذلك الحالة بالنسبة للشعوب المنتصرة القوية التى لا تعترف إلا بقانون القوة ، هذان النوعان من الشعوب سوف يتقدمان ببطء كبير وسيعترض سيرهما الكثير من العواقب ، وربما يتناقص عددهم بالتدريج ، وينتهى الأمر بهم إلى الانقراض . أما شعوب الشرق فسوف تتخلص سرعاً من سيطرة البدع الدينية والجهل والفقر ، وسيكون سير تقدم تلك الشعوب أكثر سرعة وأكثر نجاحاً من تقدم الشعوب الأوربية ، وذلك لأن الشعوب الشرقية مستقلة من أوروبا ثمار جهاد طويل دون أن تمر فى الطريق الطويل المليء بالأخطار الذى مرت فيه الشعوب الأوربية . وهكذا يشك كوندرسيه فى أنه سيبقى فى العالم أما كن لن تصل إليها المدنية والتقدم . ويشك كذلك فى أن الاستبداد يستطيع وضع سدود لا يمكن للحقيقة اختراقها ، فسوف تستقل الشعوب جميعاً وتقوم المساواة بين الأمم ، وسيكون أساس التعامل بينها احترام استقلال كل الشعوب ، ولن نرى الاستبداد والخرافة إلا فى كتب التاريخ .

تقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد :

يلاحظ كوندرسيه أننا إذا أمعنا النظر في تاريخ المجتمعات سنجد اختلافاً واضحاً بين الحقوق التي يحوطها القانون للأفراد والممارسة العملية لتلك الحقوق ، وسنرى أيضاً اختلافاً كبيراً بين المساواة التي تقرها التنظيمات السياسية والمساواة التي توجد حقاً بين الأفراد . وكان هذا الاختلاف من الأسباب الرئيسية التي هدمت الحرية في الجمهوريات القديمة والتي عاقت سير الديمقراطية ، ويرجع هذا الاختلاف إلى ثلاثة أسباب رئيسية . هي عدم المساواة في الثروة وعدم المساواة في وسائل كسب الرزق وعدم المساواة في التعليم . ويتطلب القضاء على الاختلاف السابق التقليل من الفوارق السابقة وقيام المساواة الحقيقية بين أفراد الشعب الواحد ، ولا يجب القضاء على الفوارق الاجتماعية بين الناس بصورة تامة لأنها ظواهر ضرورية وطبيعية ومن الخطر أو الجنون هدمها والقضاء عاها تماماً . ولن يستطيع التفاوت الشاسع في الثروات البقاء ، إذ سيزول سريعاً عن طريق تحقيق الحرية في الصناعة والتجارة ، ورغم وجود عوامل كثيرة تساعد على اختلاف الثروات بين الناس إلا أنه من الممكن القضاء على التفاوت الشاسع في الثروات ، أما السبب الثاني فقد قام رجال كثيرون بالدفاع عن مبادئ إنسانية تقلل من الاختلاف في وسائل العيش منها تقرير مكافأة للنساء والأطفال منذ اللحظة التي يموت فيها رب الأسرة وساعدة العمال بعد كبر السن . وهنا يجب استخدام حساب الاحتمالات حتى تعود المبادئ السابقة بالفائدة على أغلبية الشعب . ويرى كوندرسيه أن عدم تقرير تلك المبادئ السابقة يعد سبباً في وجود منبع لا ينضب للفقر والبؤس والفساد . أما السبب الثالث وهو عدم المساواة في التعليم ، فعن طريق اختيار موفق للعلوم ولأمنهج التي تستخدم في تدريس هذه العلوم نستطيع أن نعلم كل أفراد الشعب المعلومات الضرورية لكل فرد ، فنعلمه بعض مبادئ الاقتصاد والعمل وشئون الأسرة وإدارة الأعمال ، ونعلمه أيضاً واجباته وكيف يؤديها على أحسن وجه ، وكيف يحكم على أعماله وأعمال

غيره بتفكيره الخاص دون التأثير بأفكار الغير ، ونعلمه كيف لا يخضع خضوعاً أعمى لرؤسائه ، وكيف لا تخدعه الحرافات فينقدها بعقله وذكائه . وإذا تعلم أفراد الشعب الواحد هذه الثقافة العامة واستعملوا فيما بينهم لغة واحدة ، وأصبحوا يختارون مهنتهم بحرية ، عند ذلك ستسود بينهم مساواة واقعية . ويرى كوندرسيه أن اختلاف الناس في العلم وفي الموهبة وفي الذكاء لا يعد سداً أو فاصلاً يمنع الشعوب من ممارسة الديمقراطية الحقة ، وإذا آمنوا بأن يحكمهم من هو أكثرهم علماً وعبقرياً فليس عليهم الثقة العمياء في حكامهم . إن الاختلاف الطبيعي بين القدرات العقلية يوجد في جميع الشعوب ، وفي حالة فهمه بالصورة السابقة سيؤدي إلى خير الجميع .

تعمل تلك العوامل السابقة - المؤدية إلى المساواة بين أفراد الشعب الواحد - بصورة متداخلة متعاونة ، ويضرب مثلاً لذلك بأن المساواة في التعليم ستؤدي إلى تكافؤ فرص العمل وهذا يؤدي بالتالي إلى إقلال التفاوت بين الثروات . ويقرر كوندرسيه نظرية ملخصها أن التعليم إذا وجه توجيهاً سليماً سيؤدي إلى تعديل وتهذيب عدم المساواة في القدرات العقلية بحيث لا يستغل أصحاب القدرات الممتازة متوسطي الذكاء والسذج من الأفراد .

الكمال والرفق الحقيقي للإنسان :

سيؤدي التقدم السابق الممثل في المساواة الحقة سواء بين الأمم أو بين أفراد الأمة الواحدة إلى خير الإنسان ورفقيه وكماله . وإذا فحصنا قوانين هذا التقدم يتبين لنا استحالة التقهقر أو العودة إلى الوراء خطوة واحدة ، إذ يسير التقدم إلى الأمام دائماً ، ولكن تختلف سرعته حسب اختلاف الزمان والمكان . وسيعرف العقل في المستقبل كل أسرار الكون ، ويتصور الإنسان بعد كل تقدم أنه من المستحيل حدوث أى تقدم جديد لاعتقاده أنه وصل إلى الكمال ، وهذا مجرد وهم لأن التقدم مستمر بصورة لا نهائية .

سيتمخلص الإنسان في تلك المرحلة من جميع العوائق التي تعرقل التقدم ،
وسينبأ الإنسان بالكوارث قبل وقوعها فيستطيع تفاديها . ومن الممكن تلخيص
ما ذكره كوندريسيه عن معالم كمال ورقى الإنسان فيما يأتي :

العلوم :

سرتقى العلوم التي تعتمد على الملاحظة والتجربة وخاصة علم النبات وعلم
المعادن وعلم الحيوان وعلم طبقات الجو ، إذ سيحدث تقدم كبير جداً في الوسائل
التي تستخدمها تلك العلوم في الكشف عن حقائق الكون ، هذا مع العلم أن
الآلات المستخدمة في القرن الثامن عشر قد أوصلتنا إلى الكثير من الحقائق
المفيدة . أما عن العلوم التي تعتمد على التأمل العقلي وحده في الوصول إلى
اكتشافاتها فسوف تتغير صورتها ، إذ سيكثر عدد الأفراد المشتغلين بها وبذلك
تتقدم عن طريق ترسيخ وتفسير التفاصيل ، والحقيقة أن تقدمها يعتمد بصورة
رئيسية على ظهور العباقرة .

الفنون :

ستتقدم الفنون التي تعتمد على العلوم نظراً لتقدم الأخيرة ، فسوف تزداد
الآلات إتقاناً مما يؤدي إلى زيادة مهارة الأفراد وسيؤدي هذا بالتالي إلى رقى
ودقة المنتجات التي تصنعها تلك الآلات . وسيتم الإتقان في المنتجات في نفس
الوقت الذي سيقبل فيه المجهود والزمن اللازمان لإنتاجها . وسيصبح في الإمكان
إنتاج سلع كثيرة في مساحة صغيرة جداً من الأرض ، وسيخترع الإنسان سلعاً
جديدة تجمع بين الجودة وانخفاض الثمن وقلة المجهود . وسيعرف الإنسان كيف
يختار التربة الأكثر ملاءمة في الزراعة والنباتات الأكثر ملاءمة للتربة وهكذا تزداد
كمية المحاصيل مما يشبع حاجات الأغلبية .

اللغة :

سيستخدم الإنسان لغة أكثر دقة في التعبير عن أفكاره ، وستصبح لغة

كل أمة غنية بمقدّراتها ومعانيها إذ ستزداد بدون انقطاع حقائق ومبادئ العلوم والملاحظة والتجربة والحساب ، وستؤدى الحاجة إلى اكتشاف موارد جديدة وإلى معرفة وسائل جديدة مؤدية إلى تلك الموارد ، وعن طريق تلك العملية ستزداد المعلومات والاصطلاحات الجديدة . ورغم أن تقدم وتطور القدرات الإنسانية يسيران في حدود إطار عام لا يمكن تجاوزه ، فإن تقدم العلوم والفنون يسير بدون حدود وبدون انقطاع . وسوف تتخلص العلوم من اللغات الغامضة التي تستخدمها نظراً لأن اللغة الغامضة لها أضرار كثيرة إذ تدفع الإنسان للوقوع في الخطأ .

نظرية الاحتمالات :

وبعد ذلك يتكلم عن حساب الاحتمالات وعن أهمية التقدم المنتظر للعلوم جميعاً إذا طبقت في أبحاثها لأنه سيجعل لنتائج تلك العلوم ما للعلوم الرياضية من دقة ووضوح . ويكرر كوندرسيه أهمية الكم في تقدم العلوم .

علم الاجتماع :

ستكون دراسات علم الاجتماع في الإنسان عادات السلوك الحسن وسؤال العقل والضمير واحترام أحكامهما ، وسوف تكون أيضاً عادة العواطف الرقيقة التي تجمع بين خيرنا نحن وخير الآخرين . ويتعرض كوندرسيه لمشكلة اجتماعية خطيرة هي مشكلة تزايد السكان في العالم . فيقول إن الزيادة السكانية تسير بدرجة أسرع من زيادة وسائل العيش ، ويتنبأ بحدوث تلك المشكلة في المستقبل ، وذلك لأن الظروف التي تمنع حدوثها غير متوفرة ، وهذه الظروف هي الإقلال المستمر في عدد السكان وهو يشك في حدوث ذلك ، ويرى أنه سيجيء اليوم الذي تصبح فيه تلك المشكلة سبباً دائماً للبيس والفقر ، ولكنه يعود ويتساءل : هل على الإنسانية أن تبلغ ذلك اليوم ؟ يجيب كوندرسيه على هذا السؤال باستحالة التنبؤ (حالياً) بحدوث ذلك اليوم أو بعدم حدوثه . لأنه

يوم بعيد سيحدث في مرحلة يكون الإنسان فيها قد وصل إلى رقى وتقدم لا يمكن تحديد معالمها في أيامنا هذه ، ولذلك يترك كوندرسيه هذه المشكلة لتقدم العلوم في المستقبل وهو مقتنع أن هذا التقدم العلمي سوف يتغلب عليها ويحلها في صالح الإنسانية .

المتأفزيقا والأخلاق والسياسة :

يعتقد الكثيرون أن المهمة الباقية لتلك العلوم الحديثة بعد وضع أسسها ووضوح مناهجها هي هدم الأخطاء والخرافات ووضع الحقائق مكانها ، ولكن كوندرسيه يرى أن هذه العلوم سوف تتقدم في نواح كثيرة لا تخطر على بال أحد ، إذ لا يزال تحليل القدرات العقلية والأخلاقية للإنسان ناقصاً وفي حاجة إلى الكثير من الدراسة والبحث ، وعن طريق تلك الدراسة سوف تتسع وتنمو معرفة الفرد للواجبات التي تؤثر في سلوكه سواء نحو نفسه أو نحو زملائه أو نحو المجتمع الذي يعيش فيه ، وسيصبح تأثيرها أكثر دقة وعمقاً مما وجد في ذلك الوقت ، وسيعرف الإنسان بدقة حدود امتداد الحقوق الفردية ، وسيضع قوانين دقيقة بين المجتمعات لتطبيقها في السلم والحرب . وسيأخذ هذا التقدم من الفن الاجتماعي أساساً له ، ويقصد بالفن الاجتماعي الدراسات الاجتماعية ، وعن طريق هذا الفن مستحق المساواة وستحترم الحقوق الطبيعية وستأكد رفاهية وسلام الأمم والأفراد . ويرى كوندرسيه أن هناك عوامل كثيرة تعوق تقدم علم الأخلاق ؛ منها سوء استعمال الميول الفطرية بتوجيهها نحو الشر ، ومنها أيضاً العادات السيئة التي تدفع للجرائم ، ويرجع سبب تكوين تلك العادات السيئة إلى الجهل بالوسائل الخاصة بمقاومتها في صورها الأولى البسيطة أو الجهل بوسائل تهذيبها وتوجيهها . وسيؤدي تقدم الأخلاق والسياسة إلى تكوين العادات التي وضعت الطبيعة نواتها في قلوب الناس جميعاً ، ومن أمثلة ذلك مبادئ العدل النقية والإحساسات الرقيقة وحب الغير . سيمت هذا التقدم في المستقبل القريب لأنه كما يؤدي تقدم العلوم الرياضية والطبيعية إلى تقدم الفنون العملية فإن الأمر

نفسه سيحدث بالنسبة للعلوم السياسية والأخلاقية إذ سيؤدى تقدمها إلى تقدم دوافع سلوكنا ومشاعرنا . ويرى كوندرسيه أن الملاحظات السابقة تثبت أن الخير الأخلاقى موجود فى طبيعة الإنسان ، وأنه كغيره من القدرات قابل للرقى والكمال الغير محدود ، ولقد وضعت الطبيعة فى الإنسان الحقيقة والخير والفضيلة .

ويجب الإشارة إلى مظهر هام آخر للخير العام الذى سيحققه تقدم العقل الإنسانى وهو القضاء التام على الأفكار السابقة القديمة التى تنادى بعدم المساواة بين الجنسين فى الحقوق ، وسيؤدى هذا إلى اختفاء العادات والقوانين المترتبة على تميز الرجل على المرأة ، وفى هذه الحالة سوف تزدهر وتسعد الأسرة ، وسوف يتقدم التعليم وخاصة التعليم العام الذى يعامل كلا الجنسين بكثير من المساواة .

ستؤدى العوامل السابقة إلى تحقيق حالة من التقدم تعد فى القرن الثامن عشر وهماً خيالياً ، إذ ستصبح أخلاق الأمم رقيقة وسيكون أساسها العدالة والذوق ، وليس الغرور والنفاق والتعصب الدينى ، وأن الأمم أو الشعوب التى يسيطر عليها فى القرن الثامن عشر الفساد والتعصب والجشع والحروب مستودها مبادئ السياسة والأخلاق السليمة التابعة من العقل والفضيلة ، فسوف تختفى بينهم الحروب وكذلك الأفكار التجارية الرجعية المزيفة التى ترمى إلى استعمار الشعوب بحجة أن الأمم القوية ترغب فى تحقيق الرخاء والتقدم للأمم المتخلفة ، سيختفى كل هذا الفساد فى المستقبل ، وفى هذه المرحلة سوف تظهر نظمات وتشريعات ترمى إلى تحقيق الأخوة بين الشعوب . وعن طريق تقدم علم الأخلاق ستقل جرائم القتل بحيث يصبح القتل شواذ .

الفنون الجميلة :

ستحضر تقدماً عظيماً لم يسبق له شبيه فى كل من اليونان وإيطاليا وفرنسا ، إذ ستحضر تلك الفنون من الأفكار الرجعية القديمة التى تفرض كثيراً من القيود ، وفى هذه المرحلة سيصبح الجمال أكثر عمقاً ورقياً وتأثيراً ، وستصبح العواطف أكثر حيويةً ونشاطاً ، وستصبح اللوحات والصور أكثر جمالاً وضياءاً .

التعليم :

ثم يتحدث كوندروسيه عن وسيلتين تؤديان إلى كمال التعليم الأولى الضرورى للجميع ، وهما استخدم المناهج الفنية وتنظيم لغة عالمية ، ويقصد بالمناهج الفنية فن جمع عدد كبير من الموضوعات أو الحقائق أو الظواهر فى وضع منظم تنظيمياً منهجياً أى وجود طريقة دقيقة ترتب على أساسها الموضوعات بحيث إذا ألقينا نظرة سريعة على هذه الموضوعات يمكننا تحديد العلاقات والروابط بينها ، ويمكننا بسهولة أن نُكون منها معلومات وأفكاراً واضحة ، ولا يزال هذا الفن حتى اليوم (القرن الثامن عشر) فى دور الطفولة ، ولكنه فى المستقبل سيقدم الحقائق والظواهر المتفرقة فى صورة واضحة وفى وضع وترتيب سليم ، وسيعطى الفرصة للفرد لاستنتاج النتائج العامة بسرعة ودقة . وسيؤدى استخدام هذا الفن على نطاق واسع إلى تسهيل التعليم الأولى فى كل الشعوب ، وذلك لأن التعليم الأولى يعتمد إما على ترتيب منهجى للحقائق وإما على تتابع الملاحظات والحقائق ، وكلا الأمرين من اختصاص المناهج الفنية . أما الوسيلة الثانية فيقصد بها اختراع لغة عالمية تتكون من رموز معينة تعبر إما عن موضوعات واقعية وإما عن تجمعات وأفكار بسيطة عامة موجودة عند جميع الناس بالتساوى وإما عن العلاقات العامة بين الأفكار . وإذا عرف الأفراد هذه الرموز وعرفوا القوانين الخاصة بتكوينها أو الطريقة الخاصة بالجمع بينها فإنهم سيفهمون المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة ، وستكون تلك اللغة من السهولة مثل اللغة العامة ، وستستخدم كل أمة تلك اللغة العالمية فى عرض نظريات العلوم وأسس الفنون وفى تسجيل التجارب والملاحظات والمشروعات والاكتشافات والمناهج الجديدة ، وستستخدم تلك اللغة أيضاً فى الجبر الذى سيضطر لاستعمال رموز جديدة . إن اختلاف تلك اللغة فى اصطلاحاتها العلمية عن اللغات القومية للأمم المختلفة لن يترتب عليه أى ضرر أو ارتباك ، وذلك لأننا قد لاحظنا قبل ذلك أن استعمال لهجة علمية خاصة

أدى إلى تقسيم المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة إلى طبقتين غير متساويتين في الحقوق، وهما: طبقة تتكون من أفراد قليلين يعرفون تلك اللغة العلمية ويستخدمون العلوم وأسرارها في إشباع مصالحهم، أما الطبقة الثانية فتتكون من غالبية الشعب التي تجهل اللغة العلمية، وبالتالي لا تعرف العلوم وأسرارها ولذلك تخضع للطبقة الأولى. في هذه المرحلة سوف لا تؤدي اللغة العالمية إلى ذلك الفساد والانقسام، إذ سوف تُعلم اللغة العالمية للجميع مع العلم نفسه كما هو الحال في الجبر ورموزه، فسوف يعرف كل فرد ما تعبر عنه رموز اللغة العالمية، وعن طريق تلك الرموز سيعرف الأفراد مبادئ العلم، وسوف تسجل في الكتب ليس فقط الحقائق التي تنشر برموز معروفة من قبل وإنما أيضاً سوف تشمل شروحاتاً لرموز جديدة يحتاج إليها الأفراد للوصول إلى حقائق جديدة. وسيزداد رقي وكمال تلك اللغة العالمية بدون انقطاع، وسوف تنتشر من يوم لآخر وتعطى العقل الإنساني القوة والدقة والمعرفة الحقيقية السهلة، وستصل جميع العلوم إلى مرحلة من الدقة لا تقل عن دقة الرياضيات وبالتالي سيكون الخطأ مستحيلاً.

الطب :

من أهم مظاهر رقي الإنسان تقدم الطب الوافي، وسيؤدي ذلك إلى القضاء على عاملين من أهم عوامل فساد الجسم، وهما الفقر الشديد والغنى الزائد، فكلاهما يؤدي إلى أمراض خطيرة، وسيترتب على تقدم الطب الوافي التغلب على الأمراض المعدية والأمراض العامة التي ترجع إما إلى المناخ القاسي أو إلى طبيعة الأعمال الشاقة أو إلى طبيعة بعض المأكولات، وهكذا ستختفي جميع الأمراض. ويتساءل كوندورسيه: هل سترتب على هذا التقدم زيادة عمر الإنسان بصورة لانهائية؟. يجيب على هذا السؤال بأن عمر الإنسان سيطول عن المتوسط الذي وجد في القرن الثامن عشر، وسيرداد عمر الإنسان بدون انقطاع ولكنه لن يصل إلى مرحلة الخلود.

القدرات الجسمية والعقلية :

وأخيراً هناك مظهر آخر لكمال الجنس البشرى يجب ألا ننساه هو تقدم القدرات الجسمية عن طريق رقى الحواس والعمليات العضوية ، وسيؤدى ذلك إلى تقدم القدرات العقلية والأخلاقية ، ومن أمثلة ذلك الذكاء والذاكرة والحساسية الأخلاقية ونشاط العقل الروحي . ولكن تقدم هذه القدرات يسير إلى حدود معينة لا يمكن تجاوزها ، أى أن القدرات العقلية والجسمية لا تستطيع أن تتقدم بصورة لا نهائية .

وهكذا سيحطم العقل قيوده وسيقضى على أعداء التقدم وسيمشى بخطى ثابتة فى طريق الحقيقة والفضيلة والخير ، وسيخفى كل من الحسد والحقد والخوف والجريمة والتعصب والحرب والنفاق ، وسيعيش الإنسان فى هذه المرحلة مع زلائه فى جنة واقعية عرف العقل كيف يخلفها .

تعليق

إذا أردنا أن نتقدم هذا الفيلسوف الإنسان فى تحليله لتطور الإنسانية وتقدم العقل ، يجب أن نأخذ فى الاعتبار أمرين أساسيين هما :

١ - الظروف التى أحاطت كتابه « المدحص . . . » وتمثل فى اختفاء المؤلف لمدة طويلة تبلغ تسعة أشهر فى حجرة واحدة تشبه السجن وذلك لعدم قدرته على الخروج إلى الشارع أو المكتبات لجمع الملاحظات اللازمة . ولذلك فإن المؤلف لا تخرج عن كونها استطرادات وتأملات تمتد على الذاكرة وحدها .

٢ - سعة الموضوعات التى تكلم فيها ك بعد تكلمه فى كل فروع المعرفة ، ولذلك يستلزم لتقدم تلك الأفكار بصورة دقيقة توفر تصورات

متعددة . هذا بالإضافة إلى أننا إذا عالجنا نظرياته بصورة كلية نجد أن نظرتنا تختلف وفق الأساس الذي نستخدمه كقياس للنقد ومن الممكن تحديد - على الأقل - ثلاثة أسس هي : علم الاجتماع وعلم التاريخ وفلسفة التاريخ .

أما من وجهة نظر علم الاجتماع الذي نضج وازدهر في العصور التي جاءت بعد كوندرسيه فقد نقدت آراء كوندرسيه من هذه الزاوية بشيء من التفصيل في بحث آخر من الممكن الرجوع إليه ^(١) . وإذ انظرنا إلى الآراء السابقة من وجهة نظر علم التاريخ نجد أنها مشوهة وناقصة وغير دقيقة وذلك لأن علم التاريخ يعتمد على التسجيل الدقيق للحوادث التاريخية الخاصة بكل أمة وبكل فرع من فروع المعرفة ، ولا يقر علم التاريخ المنهج الفلسفي الإجمالي الذي اتبعه كوندرسيه . وإذا درسنا الآراء السابقة من زاوية فلسفة التاريخ نجد أنفسنا أمام نموذج كامل لهذا الفرع من المعرفة لأنها تتفق مع موضوع ومنهج فلسفة التاريخ وقد حددناهما سابقاً ^(٢) .

تبين لنا من العرض السابق لآراء كوندرسيه أننا أمام فيلسوف إنسان آمن بالعقل ، ودافع عن الحرية ، ومقت الاستبداد وتعصب رجال الدين ، ونادى بالمساواة بين جميع البشر رغم اختلاف ألوانهم وقومياتهم وعقائدهم ونوعهم . وقد تنبأ هذا الفيلسوف العظيم بنهاية الاستعمار الأوربي رغم انتماؤه لدولة استعمارية كبيرة ، وتنبأ كذلك بالمساواة بين الأمم وبتقدم العلوم . وهكذا بعد قرنين من الزمان نجد أن الكثير من تنبؤاته أصبح حقائق إذ رحل الاستعمار عن معظم أجزاء آسيا وأفريقيا والأمريكيتين ، وأنشئت هيئة الأمم المتحدة على أساس الحقوق والواجبات التي ذكرها كوندرسيه ، وكذلك وصل العلم إلى درجة عظيمة من التقدم والرقى .

(١) د . عاطف وصفي : نقد فلسفة التاريخ عند كوندرسيه من وجهة علم الاجتماع ، رسالة ماجستير من قسم الاجتماع بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٨ .

(٢) انظر الصفحات الآتية : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ .